20e année No 977 — Le Caire 24 - 3 - 1952

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ٩٧٧ «القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٧١ — ٢٤ مارس سنة ١٩٥٢» — السنة العشرون

تحية للشيخ الرئيس

بمناسبة الاحتفال بذكراه الألفية



ابن سينا كما يتخيله الفرنج

فى هذا الأسبوع، وفى بغداد عاصمة العلم القديمة، يحتفل العالم الإسلامى بالذكرى الألفية لمولد الطبيب الرياضى العالم الفيلسوف أبى على الحسن بن سينا واحد فنه فى الشرق والغرب، ونادرة عصره فى الطب والحكمة، وأحد العباقرة العالميين الذين زقموا قواعد العلم، ونهجوا سبل المعرفة، ووصلوا ما انقطع من تسلسل الفكر الإنسانى بين الفلسفة الإغريقية القديمة، والفلسفة الأوربية الحديثة

ولد أبو على سنة ٣٧٠ هـ فى قرية من قرى بخارى كان أبوه عاملا عليها للأمير نوح بن منصور السامانى، ثم توفى سنة ٤٢٨ بهمذان إحدى مدن إيران كان قد وفد إليها على الأمير علاء الدولة البويهى، فكان ظمء حياته على هذه الأرض ثمانية وخمسين عاما قضى أكثرها فى الاضطراب والاغتراب والنفى والسجن والخوف والشهوة والمرض، ومع كل أولئك استطاع أن يكون بحر العلم الزاخر فى وقته، وبدر العلماء الزاهر فى جيله، فقرأ كل كتاب وانتفع منه، وحذق كل علم وزاد فيه، وألف مائة سفر فى الطب والفلسفة والمنطق واللغة والموسيقى والرياضيات والطبيعيات والإلهيات والأساطير؛ وكان أول عالم ظهرت فى علمه الفلسفة الكلامية على أتم ما كانت من الدقة والسعة والوضوح. ثم كان هو والبيرونى الغاية التى لم يكن وراءها مذهب للفكر فى القرون الوسطى: هو بدقة نظامه وبراعة فهمه، والبيرونى بقوة ملاحظته وسعة علمه

رُبى ابن سينا منذ الخامسة من عمره تربية علمية منظمة، فحفظ القرآن وتثقف الأدب وشدا شيئا من الحساب والفقه. ثم سمع فى محاورة أبيه لأخيه وهما شيعيان كلاما فى النفس والعقل، وإشارة إلى الفلسفة والهندسة، فصبت نفسه إلى علم ذلك. وورد يومئذ بخارى أبو عبد الله الناتلى فأقرأه فى المنطق إيساغوجى، وفى الرياضة المجسطى، فكان الأستاذ يقف عند المبادئ والظواهر، والتلميذ يغوص على المسائل فيستخرج الدقائق، ويمحص الحقائق، ويبصر العلم بعالم لم يبصر. ثم رقب

في علم الطب فتلق أصوله على أبى سهل المسيحى ، واستقصى فروعه وحده حتى انتهت إليه الزعامة فيه . كل ذلك وسنه على ما قال هو نفسه لم تتجاوز السادسة عشرة . ثم أبرأ الأمير نوح ابن منصور من مرض برّح به ، فقربه إليه وأذن له في الدخول إلى دار كتبه ، وكانت عامرة بنوادر الأسفار في كل علم وفن ، فوعى ما فيها من كتب الطب والفلسفة وما بعد الطبيعة على ظهر قلبه . ثم أصابتها النار عمداً أو خطأ فلم تبق منها على ورقة ! فانفرد الشيخ بكنوزها المخبوءة في صدره ، وكانت هذه النكبة العلمية من مزاياه على غيره !

ثم توفى أبوه وضعف شأن أميره فاضطربت به الأحوال ، وتدفقت عليه الأهوال ، فخرج وهو في الثانية والعشرين من عمره إلى قصبة خوارزم فأقام بها يسيراً في كنف أميرها على بن مأمون ، ثم غادرها إلى جرجان فثقف بعض الناس ، وألف بعض الكتب . ثم انقلب إلى همذان فوزر لشمس الدولة بن بويه . فلما توفى هذا الأمير وخلفه ابنه تاج الدولة صرفه عن عمله ، ففرغ للبحث والتأليف ، وصنف في هذه الفترة أعظم كتبه . ثم نشب الصراع بين أمير همذان وأمير أصبهان فاتهم بالدعاية إلى علاء الدولة ، وطلبه تاج الدولة فاختبأ في حانوت صيدلى حتى وقعت العيون عليه فسجنه في إحدى القلاع . فأنشأ في ذلك قصيدة منها هذا البيت :

دخولى باليقين كما تراه وكل الشك في أمر الخروج

وظل في السجن أربعة أشهر حتى استطاع أن يفر متنكراً في زى الصوفية إلى علاء الدولة بأصبهان فأقام في حماه وادع النفس ، يؤلف ويختصر ، ويحاضر ويناظر ، ويعترض ويجيب . واتفق ذات ليلة أن جرى في مجلس الأمير حديث في اللغة شارك فيه ابن سينا ، وكان أبو منصور الجبان حاضراً ، فأنكر عليه أن يتكلم في غير علمه ، فأنف الشيخ من هذا الإنكار وعكف على دراسة اللغة ثلاث سنين حتى بلغ منها موضعاً جليلاً أهله لأن يؤلف فيها كتاباً سماه لسان العرب لم يؤلف مثله قبله أحد ! وهكذا انقضت تلك السنين الأربع والخمسون في عمل لا يفتر ، وسَعى لا يني ، وعذاب لا يرحم ، وصراع لا يهادن ، وحظ لا يساعد ، وولوع بالنساء لا يهدأ ، ونزوع إلى الشراب لا يكف ، حتى وهن الجسم القوى ، ووهى العزم الشديد ، ونزلت بالقطامى العظيم علة نكل عنها تدبيره وطبه !

٭ ٭ ٭

كان الشيخ الرئيس برد الله ثراه آية من آيات الله في لقانة الذهن وأصالة العقل وقوة الحافظة ونفاذ الهمة . أكثر علمه من اجتهاده ، وأنجح طبه من تجاربه ، وأجل كتبه من حفظه . وكان على استبداد عقله بفكره ، وطغيان علمه على فنه ، صافى القلب للدين ، صافى النفس للشعر ، سامى الخيال للقصص . كان إذا أعيت عليه مسألة ذهب إلى المسجد فتوضأ وصلى وابتهل إلى الله أن يجلو عليه ما غمض ويفك له ما أشكل . ثم كان له في الشعر العينية ومقطوعات أخرى من النمط الرفيع والنسق الفريد ، وفي الأساطير (سلامان) و (حى بن يقظان) و (الطير) ، وهي رموز لمعان سامية من الحكمة العالية والروحية الجليلة . وكان في الشيخ رحمه الله صوفية لا تجرى على منهاج المتصوفة : صوفية هؤلاء وجدانية تقوم على الزهد والتقشف ، وتقصد إلى تصفية القلب وتطهيره ؛ وصوفيته هو عقلية تبيح النعيم واللهو وترمى إلى تقوية العقل وتنويره . وكان أعظم ما ميز الشيخ اليقين فيما يرى ، والثقة فيما يقول ، والإبانة فيما يكتب . كان لا يشك إذا علم ، ولا يتردد إذا فهم ، ولا يتحسس إذا استبان . وتلك طبيعة العالم لا الفيلسوف ، والدارس لا الباحث ، والمتبع لا المبتدع ، والمؤلف لا المنشئ .

هذه أثارة من حياة حافلة ، وإشارة إلى مجد باذخ ، وعبارة من تاريخ ضخم . ذكرناها على هذا الإيجاز القاصر اكتفاء بما سيلقيه ذوو الاختصاص في حفلات مهرجانه من البحوث المفصلة في طبه ، والخطب المطولة في فلسفته . وإنا لنحيى خاشعين من وراء الستر ذكرى الشيخ الرئيس ، ونسأل الله ضارعين أن ينعم روحه في الخلد ، وأن يطيب ذكره في الخلود

احمد حسن الزيات

مع ابن سينا في عهده الأول

ملوك وأمراء

في حياة الرئيس ابن سينا

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

لعل أوثق المصادر عن ابن سينا وحياته هو الشيخ الرئيس ابن سينا نفسه في الترجمة التي كتبها مجيبا بها عن سؤال أحد تلاميذه إياه. وقد أكمل هذه الترجمة تلميذه وتابعه وصاحبه منذ أن اتصل به في إقليم جورجان إلى حين وفاته. وهذه الترجمة محفوظة بالمتحف البريطاني (١) في نسخة لا تزال خطية. وقد استفاد منها ابن أبي أصيبعة فنقلها في كتابه «عيون الأنباء» (٢) كما نقل أكثرها المؤرخ القفطي المصري في كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» (٣)

ولقد عاش ابن سينا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والثلث الأول من القرن الخامس، لأنه توفي في سنة ٤٢٨ هـ وهو عصر كثر فيه تقسيم الدولة العباسية إلى دويلات صغيرة، فهناك الدولة البويهية التي وقع تحت سلطانها خلفاء بغداد، وخاصة الطائع والقادر والقائم الذين عاش ابن سينا في مدة خلافتهم (٤). وهناك الدولة السامانية ببخارى في إقليم خراسان وما وراء النهر. وكان الأمير نوح بن منصور بن سامان هو الأمير الثامن (٥) من ملوك هذه الدولة، وهو الأمير الذي دعى ابن سينا لمداواته كما سيأتي بعد (٦). وكان هناك دولة المأمونيين ولاة خوارزم الذين سميت دولتهم بالدولة الخوارزمشاهية. وهي دولة لا يعرف على وجه التحقيق اسم مؤسسها. ولكن اسمها يبدأ في الظهور منذ سنة ٣٨٠ هـ — أي بعد ميلاد ابن سينا بعشر سنين — وفي عهد أميرها الثاني علي بن مأمون بن محمد بن خوارز مشاه جاء ابن سينا من بخارى إلى جرجانية «كركانج» فأكرم الأمير وفادته، وأمر له بمشاهرة دارة تقوم بكفاية مثله (٧). وهناك كانت دولة جرجان وكان ملكها الأمير قابوس بن وشمكير الكاتب المترسل الأمير الذي قصده ابن سينا بعد خروجه من خراسان، ولكن اتفق في تلك الأثناء أن قبض على الأمير قابوس وحبس في بعض القلاع ومات هناك (٨). وكان هناك من ملوك الديلم مجد الدولة بن فخر الدولة الديلمي. ومجد الدولة هذا هو أخو شمس الدولة من ملوك همذان. وكانت الأميرة «سيدة» والدة مجد الدولة الديلمي هي المرجع في تدبير الملك، وعن رأيها يصدر الأمراء والولاة في مباشرة الأعمال (٩): وكان هناك دولة أصفهان وأميرها علاء الدولة بن كاكويه، وكان ملكا على أصفهان وملحقاتها، وحكم من سنة ٣٩٨ إلى سنة ٤٣٣ وكان أبوه خال الأميرة «سيدة» والدة مجد الدولة بن بويه الديلمي، ولهذا سمي «كاكويه» لأن الخال في لغة الديلم يسمى «كاكو» أو «كاكويه» (١٠) وعلاء الدولة هذا هو الذي اتصل به الشيخ الرئيس ابن سينا، وصار من أصحاب الحظوة عنده، وبقي في خدمته إلى آخر عمره، ولكنه لم يكن له وزيرا في يوم من الأيام (١١). أما الوزارة فكانت من ابن سينا لشمس الدولة أخي مجد الدولة؛ فقد وزر له مرتين مابين سنتي ٤٠٥ هـ، ٤١٢ هـ

وكان هناك — فوق ذلك — في عصر ابن سينا الدولة الغزنوية التي كان أول ملوكها «سبكتكين» سنة ٣٦٦ هـ. كما كان محمود الغزنوي — المعروف بيمين الدولة محمود بن سبكتكين — هو ثالث ملوكها. وهذا الفاتح العظيم قد أثار حروبا كثيرة في حياته وفي عصر ابن سينا بالذات. فهو فوق غزوه لبلاد الهند

(١) جهار مقالة للسمرقندي. ص ١٧٦ لتعليقات العلامة القزويني
(٢) عيون الأنباء ج ٢ ص ٣
(٣) طبعة الخانجي ص ٢٦٩ — ٢٧٨ هـ
(٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري بك ج ٣ ص ٤٤٠
(٥) المصدر السابق ص ٣٤٨
(٦) عيون الأنباء ج ٢ ص ٤ والقفطي ص ٢٧١ طبع مطبعة السعادة

(٧) جهار مقالة — طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ١٦٩. وعيون الأنباء. والقفطي ص ٢٧١
(٨) عيون الأنباء ج ٢ ص ٤، والقفطي ص ٢٧١
(٩) الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ١٨٦
(١٠) العروضي السمرقندي ص ١٧٤
(١١) المصدر السابق ١٧٤

وفتحه لهـا قد حارب دولة خوارزمشاه (١٢) وملك خوارزم سنة ٤٠٧ هـ . وهي دولة اتصل ابن سينا بها وبأميرها على بن المأمون كما أسلفنا . ولم يكتف محمود الغزنوى بهذا ، بل استغل ما بين الأمراء والملوك حوله من خصومات ونزاع ، فدخل بينهم لمصلحة دولته الناشئة القوية . كما فعل فى الحرب التى قامت بين سلطان الدولة البويهى وأخيه أبى الفوارس بن بهاء الدولة .

وكأن محمود الغزنوى كان يستعد لافتراس هذه الدويلات المتقاطعة المتناحرة دولة بعد دولة . وكان همه بالذات متجها إلى إمارات بنى بويه ، ففى سنة ٤٢٠ هـ اتجه إلى إقليم الرى ، وكان عليه الأمير مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه فملكه محمود الغزنوى . كما ملك إقليم الجبل . وفى سنة ٤٢١ هـ وجه مسعود ابن يمين الدولة الغزنوى جيشا إلى إقليم همذان . أما علاء الدولة بن كاكويه — وهو الأمير الذى اتصل به ابن سينا فى أصفهان — فلم يسلم من غارات الدولة الغزنوية التى دخلت جيوشها « الرى » فانهزم علاء الدولة وجرح فى رأسه وكتفه وهرب تاركا إقليمه فى يد السلطان مسعود الغزنوى بن محمود الغزنوى (١٣)

على أن هذه لم تكن آخر حروب السلطان مسعود الغزنوى ابن محمود الغزنوى ضد علاء الدولة بن كاكويه : ففى سنة ٤٢٥ هـ — أى قبل وفاة ابن سينا بثلاث سنوات — اتفق علاء الدولة مع فرهاذ بن مرداويج على قتال عسكر السلطان مسعود الغزنوى . ولكن الحظ خان علاء الدولة حتى بعد احتمائه بالجبال الشاهقة بين أصبهان وجرباذقان . فتقدم أبو سهل الحمدونى قائد جيش الغزنوى إلى أصبهان وملكها . وفى هذه المعركة نهبت خزائن علاء الدولة بن كاكويه وأخذت أمواله الطائلة . وفى هذه المعركة بالذات كان الشيخ الرئيس ابن سينا فى خدمة علاء الدولة — ولم يكن وزيراً له — فأخذت كتب الشيخ وحملت إلى غزنة — عاصمة الدولة الغزنوية — وجعلت فى خزائن كتبها إلى أن أحرقت على يد عساكر الحسين الغورى (١٤)

لقد عاش ابن سينا فى هذا العصر الزاخر بأحداث كبار ، ورأى بعينيه كيف كان يتقاتل الإخوة وأبناء العم على الملك والسلطان ، كما حدث بين أفراد أسرة بنى بويه فى الرى وأصفهان وهمذان وجرجان ؛ بل اتصل من قرب بالأمير شمس الدولة بن فخر الدولة أمير همذان ، وشاهد الأحداث التى جرت له مع أقاربه بنى بويه من ناحية ، ومع ملك الغزنويين من ناحية أخرى . واتصل ابن سينا أكثر من ذلك بالأمير علاء الدولة بن كاكويه ؛ وهو يتصل ببنى بويه أيضاً — لأن والده « دشمنزيار » هو خال الأميرة « سيدة » والدة مجد الدولة بن فخر الدولة البويهى .

وشاهد ابن سينا فى أثناء اتصاله بابن كاكويه كثيراً من الأمور الجسام ، فلم تسلم مدينة من مدن العراق وفارس من ثورة أو غارة للمتحاربين النهابين ، بل لم تسلم أصبهان نفسها من حوادث النهب والسلب على أثر استيلاء جند السلطان مسعود الغزنوى عليها .

وفى غمار هذه المعركة نهبت كتب الشيخ الرئيس ونقلت إلى غزنة ، إلى أن كتب عليها أن تحرق على يد محارب آخر من رجال الدولة الغورية

وقد لقى ابن سينا من ملوك الدول القائمة فى عصره الأمير نوح بن منصور السامانى ، والأمير على بن المأمون الخوارزمشاهى ، والأمير شمس الدولة بن فخر الدولة البويهى الديلمى ، ووزر له مرتين ، والأمير علاء الدولة بن كاكويه أمير أصبهان ، واتصل به وألف باسمه كتباً كثيرة ، ونكب معه فى غارة السلطان مسعود الغزنوى على أصبهان . أما الأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير ملك جرجان فيظهر من كلام الشيخ ابن سينا نفسه أنه لم يقابله ، وأنه كان يقصده ، فاتفق القبض على قابوس وحبسه فى بعض القلاع وموته . وهو نص لا يدل على لقاء الشيخ الرئيس لهذا الملك الأديب العظيم ... إلا أن العروضى السمرقندى صاحب كتاب « جهار مقالة » يذكر حادثة طريفة بارعة عن ابن سينا واستخباره أحوال بعض العاشقين واسم

(١٢) ابن الأثير جـ ٧ ص ٢٨٢

(١٣) الكامل لابن الأثير جـ ٧ ص ٣٤٨

(١٤) الكامل لابن الأثير جـ ٨ ص ٦

واحة سيوة

للأستاذ صبري حسن علوان

كانت الساعة السادسة صباحا حين أخذنا عدتنا في «مرسى مطروح» مولين وجوهنا شطر سيوة؛ تلك الجنة الخصيبة وسط الصحراء الجدبة، وكنا نأمل أن ندركها قبل أن نبيت ليلة أو أكثر في جوف الصحراء الغربية. ذلك أن الرمال قد جادها الغيث الهتون وقد احتفلت نواحيه، وأسفت أعجازه وهواديه، فشربت الصحراء بعد عطش، وامتلأت الآبار بعد خواء، وكونت التلاع الحادرة بحيرات كبيرة في المجتمع المنبسط الذي يصلح كطريق للسيارات!

وسرنا باسم الله، ونحن على وجل من أن يغوص أحد إطارات السيارة في الرمال الدقيقة المشبعة بماء المطر فتضطرنا الأحوال أن نبيت في العراء كما فعل قوم من قبلنا ظلوا في الطريق سبع عشرة ساعة. والمسافة بين «مرسى مطروح» وبين «واحة سيوة» ثلاثمائة كيلو مترا، منها خمسة عشر كيلومترا بعد المائة ممهدة تمهيدا صالحا، وما يتبقى فليس له معالم متميزة فهو يختلط إلا على السائق الماهر الذي جاب الطريق أكثر من مرة، هذا عدا ما يلاقيه المسافر من صعوبات جمة لكثرة المرتفعات والمنخفضات في عرض الصحراء التي تجعل المسافر بالسيارة لا يستقر على حال، مرة إلى أعلى وثانية يقع على جنبه الأيمن وأخرى يميل إلى يساره، وهو في ذلك يجد من الرهق مالا يحسه إلا المسافرون. إن السيارة تقطع المسافة الممهدة في ساعتين وتقطع الباقي في عشر ساعات. هنا يطيب أن نسأل لماذا لا تنشط الحكومة في تمهيد هذا الطريق الهام فتتمه في سنة أو سنتين أو ثلاث بدلا من أن تمهد كل عام ثمانية كيلومترات فقط، أي أنها تريد أن تتمه بعد أكثر من عشرين عاما.. إن شاء الله!

إن واحة سيوة جزء من مصر؛ بل هي من الأجزاء المهمة من مصر كما سنرى، أم تريد أهل هذه الواحة أن يظلوا على اعتقادهم أنهم «سيويون» قبل أن يكونوا «مصريين». إن رصف الطريق إلى سيوة هو من أول الواجبات التي يجب على الحكومة والتي يتحتم عليها الإسراع في أدائها

وبعد ثلاثة عشر ساعة لاقينا فيها من المصاعب ما لاقينا وصلنا إلى سيوة، وبتنا ليلتنا وأصبحنا فوجدناها جنة خضراء يرتفع في جوها النخيل نشوان، ويسكن في جنباتها الزيتون، لا يشربان من ماء النيل وإنما من ماء العيون. وبالواحة ما يقرب من مائة عين، كل عين تسيل في قنوات يخضر من مائها الحجر، ويينع الزهر ويستوى الثمر؛ ماء عذب صاف لا تخرجه آلة ولا يجود به سحاب وإنما ينبعث من جوف الحصى. ينضح وجه الصحراء العبوس فيبتسم، وجبهتها المتقطبة فتنبسط، وطبيعتها القاسية فتلين.. يرزقها الطل وهي بنت الهجير، ويمنحها النسيم وهي أخت العواصف، ويسمها الجمال ومن سماتها التجهم

وتنخفض سيوة عن مستوى سطح البحر بستة عشر مترا، ويقترب منسوب الماء من سطح الأرض؛ فقد حفرت حفرة صغيرة عمقها خمسون سنتيمترا في الجهة البحرية من الاستراحة الحكومية فتجمع الماء في قاع الحفرة، على حين ظهر الماء في أرض المطار الحربي الجديد على بعد أكثر من مترين. ويمكن الاستفادة بقرب مستوى منسوب الماء في زراعة بعض الفواكه

معشوقته ويعلمها من نبض المريض. ويروى العروضي السمرقندي أن ابن سينا دعي إلى مداواة هذا العاشق النضو بأمر من الملك قابوس الذي دعا الشيخ الرئيس إليه ليعالج مريضه القريب. وعلى الرغم من طرافة هذه الحكاية فإن الأستاذ محمد ابن عبد الوهاب القزويني يستنبط أن ابن سينا لم يخدم الملك قابوس بن وشمكير لأنه حبس قبل بلوغ ابن سينا جرجان

محمد عبدالغني حسن

مثل البطيخ حيث لا يحتاج الأمر إلى كثير جهد . ويغطى التربة فى كثير من الأما كن طبقة قشرية تزتفع فيها نسبة الأملاح مما قد يحتاج إلى بعض الجهد فى استصلاحها ، إلا أن وجود العيون ومائها الناساب ييسران إلى حد كبير هذه المهمة

وهناك عين جديدة يوجد حولها أكثر من مائتى فدان لا ينقصها إلا اليد العاملة والبذرة التى توضع فى الأرض ، ولكنك لو سألت ، أتاك الخبر المحزن : كل الأهالى وقلة الأيدى العاملة . إن الأهالى هناك تراهم بنية لا تستقيم . . ويدا لا تشتد ، وهمة لا تطامح ، فهم يعتمدون على ما يدره النخيل والزيتون . . أما النخيل فيبيعون تمره على أنواعه ويصنعون من بعضه «العجوة» ، وأما الزيتون فهم يخللونه أو يعصرونه فى معمل الوزارة الموجود هناك ليستخرجوا منه زيت الزيتون ، أما بقية العام فهم يقعدون . . اللهم إلا قلة قليلة تزرع الشعير وهو يجود . وإنك لتلاحظ الكسل من غير ما صعوبة لو أنك طفت مرة واحدة بالكميات الضخمة من النخيل فى الحدائق المختلفة ، فلا تجد نخلة مشذبة منظمة ، بل يتكاثف سعفها من عام إلى عام ، ويحيط بها نجلها سنة بعد سنة ، وهم يحجمون عن أن ينموا النجل بحجة تستند إلى خرافة

ما السبب إذن فى ذلك الكسل الخيم ؟ إن لأسبابه جذورا عميقة تمتد إلى أكثر من التواكل . يقولون إن الشذوذ الجنسى فى الرجال شائع إلى درجة كبيرة جدا ... ونحن لا يهمنا أن نصدق ما يقولون أو نكذبه .. وإن كان ما يقولون ينافى الفطرة ، وخاصة وأنه — كما يزعمون — أصبح من (المألوفات) فإنه أيضا لا يهمنا أن نصدق هذا الزعم أو نكذبه ؛ إنما الذى يهمنا هوهاتان الظاهرتان المخيفتان : انقراض النسل فى خطوات ليست بالبطيئة ، وانتشار الأمراض السرية إلى حوالى سبعين فى المائة كما صرح بذلك بعض المسؤولين . إن عدد السكان كان منذ عشرين عاما خمسة آلاف نسمة وهو اليوم دون ذلك بكثير!

قد يكون التزاوج المحلى هو السبب ، وقد يكون ما «يقولون» .. وما «يزعمون» هو السبب . . وقد يكون انتشار الأمراض السرية هو السبب ، وقد يكون — أخيرا — هجرة الأهالى — على قلتها — هى السبب ؛ إلا أن الذى لاشك فيه أن عدد السكان فى تناقص مستمر . . وهذا شئ كفيل بأن يتداركه المسؤولون ، أن يتتبعوا الوشائج ، وأن يتعلقوا بالأسباب ، وأن يعرفوا مركز الدائرة ثم أن يطبوا للداء ! وعندى رأى لا أشك فى فائدته : لماذا لا تعمل الحكومة — أيا كانت هذه الحكومة — على ترحيل عدد كبير من المعدمين والعاطلين إلى هذه الواحة ، وهى لن تمدهم إلا بالضئيل من المونة ، حتى تندى الكف الجافة ، وتشتغل اليد العاطلة ، ولعله أن يكون فى نشاط الوافدين إذكاء لهمة الأهالى القاعدين . وإنك لتعجب إذا علمت أن المستشفى الذى يريد أن يعالج قوما نسبة المرض بهم ما رأيت ليس به دواء ولا طبيب ! ذلك أن أنوار القاهرة تغرى .. وتغنى .. وأن الحكومة المصرية لم تستطع إلى الآن أن تجند الأطباء — وهم أساة البشرية — تجنيدا دوريا فى الممتلكات المصرية التى لها فى عنق مصر حق الرعاية . إنه يجب على كل طبيب موظف بالحكومة أن يقضى عاما أو نصف عام فى الواحات وما شابهها حتى لا يحرم الناس اليد التى تأسو جراح المصابين

ورسالة التعليم من أهم ما يرتقى بهذه الواحة الجميلة البائسة . إن هناك مدرسة ابتدائية واحدة بها ثلاثة فصول وثلاثة مدرسين ، والصعوبة التى تواجه التعليم هناك هى اللغة ، إذ أن للأهالى لغة محلية خاصة غريبة لا تتصل بالعربية من قريب أو بعيد ، وهناك مدرسان خاصان بالمدرسة الأولية من اهالى الواحة ويعرفان العربية يتوليان هذه المهمة . . وهى جليلة ، إلا أنهما يشكوان من معاملة الوزارة لهما لأنهما ليسا من حاملى « الشهادات » . . فتعطى أحدهما منذ سبعة عشر عاما ثلاثة جنيهات فى الشهر ! ما هكذا يكون التعليم ولا تشجيعه ! والذى لاحظته عندما زرت

المدرسة هو فصاحة اللسان العربي بعد ما يتعلمونه

ولكسل الأهالي وعدم طموحهم ، تقل الجرائم ، وإن طائرة خاصة تطير بالقاضي مرة كل شهر أو شهرين ليجلس في منصة القضاء ساعة أو ساعتين يفصل فيها بين الناس في قضايا معظمها جنح وغرامات مالية ضئيلة ، وعلى ما يكلف القاضي الحكومة من الناحية المالية فإن هذه الزيارات المتباعدة قد تقلل من هيبة الفصل القضائي في نفوس الأهلين . أحد أمرين : إما أن يعين وكيل للنيابة في سيوة يشعر الناس بهيبة القضاء ، وإما أن يترك تصريف هذه الجنح والغرامات إلى مأمور القسم وهو رجل عسكري من رجال الجيش ، يتصرف فيها محليا حتى يشعر الناس بسطوة القانون

ولسيوة ، فضلا عن الناحية الاقتصادية التي يجب أن تستغل وتستثمر ، والناحية الاجتماعية التي يجب أن يهتم بها وتستصلح ، ناحية ثالثة لا تقل أهمية عن الناحيتين السابقتين : تلك هي الناحية «الاستراتيجية» .. فهي بمائها العذب وعرها الوافر تمد مركزا عسكريا تموينيا هاما للجيوش مدافعة كانت أو مهاجمة ، إن قربهـا من الحـدود المصرية الغربية يحتم على المسؤولين إما أن يدربوا رجالها تدريبا عسكريا حيا، أو أن يزيدوا حاميتها زيادة تليق بموقعها الهام لا أن تظل على ما هي عليه : ستة عشر جنديا ورئيسهم . ولن أكون كناقل التمر إلى هجر ، فإنما يحدثك عن استراتيجيتها رجل عسكري له في الجهاد سابقات؛ ذلكم هو اللواء محمد صالح حرب باشا ، فقد زرنا معه منطقة قريبة من سيوة اسمها « جربة » وقد استحضر الرجل العسكري ذكريات عزيزة كريمة عن المناوشات والمعارك الحربية التي قام بها الثوار الوطنيون في سنة ١٩١٤ وكان معـه في ثورة الحرية السيد الشريف السنوسي « صاحب الجـلالة ملك ليبيا الآن » وكيف أنه لما نفد ماؤه وزادهم وقلت ناقلاتهم وركائبهم لم يتقدم إلا الجمال والبلح والمـاء من واحة سيوة فانتصروا على الإنجليز يومها انتصارا استراتيجيا

وأظننا لا ننسى أنها كانت هدفا للألمان والطليان في الحرب الأخيرة أثناء زحفهم في الصحراء الغربية . نعم ! إن الصحراء الغربية بجفافها واتساعها تعتبر حاجزاً طبيعيا ضد إغارة المغيرين على الوطن العزيز ، ولكن هـذا لا يكفي مطلقا فإنه يجب أن نحصن حدودنا الغربية تحصينا كاملا قويا ، وخاصة وأن عدونا يعسكر في « كابتزو » بالقرب من حدودنا في دولة ليبيا الجديدة

من هذا تتضح أهمية « واحة سيوة » كمنطقة هامة يجب أن لا تنسى أو تهمل ، وإنه لو صحت العزائم ، لأمكن أن نستثمر الكثير وأن نستصلح الكثير . ولعلني أكون قد وفقت أن أنقل ما أثارته في نفسي زيارة هذه الواحة التي لاح لي في صفحة جمالها أثارات من الأسى، وفي سماء صفائها ألوان من السحاب.. وفي عيونها الجميلة ، فنون من العتاب !

صبري حسن علوان

عمر الخيام

بين الحقيقة والأسطورة

للأستاذ السيد أحمد مصطفى الخطيب

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

الأسطورة الثالثة

لو قال لنا أحد الذين يؤثرون جانب الجدل العقيم واللجاجة المقوتة ، ما بالكم قد ملأتم الدنيا ضجيجاً وعجيجاً بتحدثكم عن الخيام ورباعياته ؛ إنى لأتحداكم جميعا . هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . إننى أنكر أن تكون للخيام رباعية واحدة لا رباعيات تبلغ الألف والمائتين عدداً، وأرى كل ماتدعونه فى هذا الخصوص ليس إلا محض وهم باطل لا يجاوز نطاق الحدس والتخمين ، فالخيام لم يترك وراءه ديوانا بخط يده ، ولم يشر إلى شعره فى تآليفه العديدة ، ولم يمل على أحد من تلامذته ما يسمى اليوم بالرباعيات ، كما أن (جهار مقاله) أقدم سفر تاريخى عثر عليه لمصنفه (نظامي عروضي سمر قندى) تلميذ الخيام المخلص لم يذكر ولا كلمة واحدة عن رباعيات أستاذه، برغم أنه زار قبره بعد وفاته ببضع سنوات فقط، وذكر أموراً فى مؤلفه أقل أهمية وأضأل شأنا بكثير من الرباعيات ..

إن جميع ما يدعى ويقال بهذا الصدد إن هو إلا أسطورة جميلة وتفكير شعرى بديع نسجها الوهم وزينها الخيال ، فنزلتها منزلة غيرها من الأساطير المصطنعة التى لم تقم لها قائمة إلا بعد أن مرت على موت الشاعر عدة قرون

أجل ! ماذا يكون جوابنا إن جابهنا هذا الجدلى اللجوج بمثل هذا المنطق الساخر العابث ، ثم ألح علينا فى عناد وإصرار أن نثبت له إثباتاً لا يتطرق إليه أى شك أن للخيام رباعيات حقيقية ترضى عن نسبتها إليه أساليب التحقيق العلمى الدقيق فى عصرنا الحديث هذا ..

فى الحق أننا عاجزون تمام العجز عن أن نكيل لهذا المكابر الخبيث الصاع صاعين ومن توفيته حقه الكيل كيلين ، وأن نسخر منه بنفس الطريقة التى سخر بها هو منا ، وإن كنا نملك فى الوقت نفسه أدلة وبراهين لا تقبل الدحض ، ونستطيع بعرضنا إياها عليه أن نجعله يخفف من غلوائه ويقلل من خيلائه ويرتد شيئا فشيئا إلى هدوء العقل واتزانه ..

فالثابت المؤكد حتى الآن — كما يدعى صاحبنا الجدلى — أن الخيام أهمل فى حياته أن يكتب سيرة نفسه بقلمه ، أو أنه كتبها ولم تصل إلينا لامتداد يد الضياع إليها ، أو أنها لم تضع ولكنهــا فى جهة مجهولة لم تتناولها يد المحققين بعد ، غير أنه ثابت ثبوتاً قاطعا أيضا أن الخيام لم يكتب فى الفارسية من الشعر سوى الرباعيات وحدها ؛ أما هل جمع كل ما كتبه من هذه الرباعيات وضمنها بين دفتى كتاب خاص بنفسه ، أو أملاها على أحد من طلابه ؛ فذلك ما نحن منه فى ظلام دامس حتى الآن ، وأظن الأمر سيبقى كذلك إلى الأبد إلا إذا عثر على دليل مادى يقلب المسألة رأسا على عقب ويغير مجرى البحث تغييراً تاما فى يوم من الأيام ..

إن أقدم نسخة للرباعيات بين أيدينا اليوم وهى الموسومة بـ (رسالة الرباعيات) يرجع تاريخ كتابتها إلى نحو ثلاثمائة عام تقريبا بعد موت الشاعر ، وقد عثر عليها فى مكتبة بولدين بأكسفورد وتسمى بنسخة السر أوسلى، وهى نسخة منقولة عن غيرها من النسخ وليست أصلا . أما من هو الناسخ الذى نقلها ؟ وعن أية نسخة نقلها ؟ وهل أن الرباعيات الواردة فيها والبالغ عددها ١٥٨ رباعية ؛ كلها للخيام ذاته أم أن هناك بينها الدخيلات والمنحولات ؟ ثم كم عدد أولئك فى حالة افتراضنا اندساسها بين الرباعيات الأصيلة .. كل هذه أسئلة وعلامات استفهام تدور فى أذهان الباحثين والمدققين منذ أن عرف الغرب شاعر الشرق ولكن بدون جدوى ، وبغير أن يعثر لها على جواب شاف يقطع الشك باليقين والحيرة بالاطمئنان ..

على أننا رغم كل هذا يجب أن نعلم فى الوقت نفسه أن المعلومات السلبية الآنفة الذكر تملها علينا طبيعة المنطق المجرد فحسب ، وأن ثمة أموراً كثيرة نعلمها عن حياة هذا الشاعر

وشخصيته وأخلاقه وبيئته وآثاره ومؤلفاته ، كما أن هناك مؤرخين معروفين ، وعلماء مشهورين ، وفقهاء ومتصوفين ذائعي الصيت مرموقي المقام تناولوا عدداً غير قليل من رباعيات الخيام في كتبهم ومصنفاتهم وهم معاصروه بالتعليقات المتنوعة ، وناقشوها مناقشة فيها اللين والهوادة تارة ، والعنف والقسوة تارة أخرى ، فإذا جاز لنا أن نتشكك في صحة إسناد كل الرباعيات المتداولة إلى الخيام فإنه لا يجوز لنا إطلاقا أن نتشكك في صحة نسبة بعضها إليه على الأقل .. ذلك البعض الذي يمثل آراء وأخلاق وشخصية وظروف بيئة الخيام التي نعرفها والتي يمكن اعتبارها في عداد الحقائق التاريخية التي لا تقبل أي جدل أو نقاش

إذن يظهر أن الألف والمائتين رباعية التي تطارد الخيام اليوم هنا وهناك في الشرق والغرب وتثير حوله طوفاناً من الضجيج والصخب ، وتجمع له الأنصار والأصدقاء ، وتؤلب عليه الأعداء والناقمين ؛ ليست سوى أسطورة ضخمة كغيرها من الأساطير ، تقابلها حقيقة متواضعة تتمثل في عدد متواضع من الرباعيات معترف بها اعترافا كاملا ويبلغ الأربع والثمانين رباعية فقط ، وذلك استناداً إلى أصدق وأحدث البحوث العلمية في هذا الشأن حتى يومنا هذا

الأسطورة الرابعة

لم نسمع أن شاعرا أوذي في سمعته بعد موته كما أوذي الخيام أو أصابه من الاتهامات الكاذبة والافتراءات المدبرة ما أصاب هذا العبقري العظيم والأديب الفحل والنابغة الأوحد

ولو سألنا أي واحد من هؤلاء الذين سمعوا عن الخيام ولم يحققوا ، وقرأوا عنه ولم يتتبعوا ، أن يصف لنا شاعر الرباعيات كما يتصوره هو أو كما يصوره له الوهم بالأحرى ، لما تعدى نطاق وصفه إياه عن أن الخيام كان شاعرا عابثاً لاهيا ، خليعا فاجراً ، يقضي وقته متنقلا من حانة إلى أخرى ، نديمه الكأس ليل نهار ، لا يفيق من سكرة إلا ليستسلم إلى أخرى ؛ ثم هو على ذلك ملحد جاحد أعلن حرباً شعواء على الأديان كلها ، وهاجم المتعبدين والزهاد ، ورسالته في الحياة : لا تفارق الخمرة حتى تموت

هذه هي الصورة الشوهاء المزيفة التي يتخيلها عدد كبير من الناس ويرسمونها على أنها صورة حقيقية للخيام

لقد كان الخيام قبل كل شيء فيلسوفا نزيها وأديبا عفيفا ، يزينه الوقار ويسمو به جلال العلم على أقرانه من أهل زمانه .. وكان إلى ذلك ذكي الفؤاد متوقد القريحة ، صاحب رأي ؛ يجهر بالحق ويحارب الشعوذة أينما وجدت .. فلهذا جاهره بالخصومة فريق من دعاة الصوفية في زمانه ، كانوا يتخذون الدين وسيلة لا غاية ، فأطلقوا ألسنتهم عليه ودأبوا على نشر كل باطل عنه وإلصاق كل تهمة كاذبة به حتى لقد رموه بالكفر والإلحاد أيضا ، وكل ذلك لأنه كان يكشف عن ريائهم ونفاقهم ، ويعلن عن جهلهم وتعصبهم دون خوف ولا حذر

قال عنه شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري في كتابه الموسوم بـ (نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تواريخ الحكماء المتقدمين والمتأخرين) الذي ألفه في القرن السادس الهجري ما يلي بحروفه :

(كان الخيام عالما بالفقه واللغة والتواريخ .. دخل ذات يوم على الوزير عبد الرازق وكان عنده إمام القراء أبو الحسن الغزالي وكانا يتكلمان في اختلاف القراء في آية .. فقال الوزير : على الخبير سقطنا . ثم سأل الخيام فذكر اختلاف القراء وعلل كل واحد منها وذكر الشواذ وعللها وفضل وجهاً واحداً . فقال الغزالي : كثر الله أمثالك في العلماء فإني ما ظننت أن أحدا يحفظ ذلك من القراء فضلا عن واحد من الحكماء

ودخل عليه حجة الإسلام الغزالي يوماً وسأله مسألة فلكية فأطال عمر الخيام الإيضاح حتى أذن الظهر .. انتهى كلام الشهرزوري)

ومن بين مصنفات الخيام العديدة كتابه (رسالة في الجبر والمقابلة) كتبها في العربية وترجمت إلى الفرنسية وطبعت في باريس سنة ١٨٥١

٢ — كان الخيام ينزل في المرتبة الأولى من أهل زمانه ، يتسابق إلى خطب وده الوزراء ؛ وكان الملك سنجر يجلسه على العرش بجانبه توقيرا له ، وكان متعبدا زاهدا منصرفا إلى العلوم والتدريس ، نافضا يده من الأمور الدنيوية التي تتكالب

عليها الأطماع وتصطرع دونها الأحقاد ، وكان يلقب بحجة الحق الإمام عمر

٣ — لم يثبت إطلاقا وعلى أى وجه أن الخيام قد ذاق الخمرة طوال حياته ولو مرة واحدة

٤ — كان الخيام طبيباً بارعا معروفا له المحل الأول بين أطباء عصره المشهورين

٥ — كان مدرساً جليل القدر فى نيسابور التى أنجبت عدداً كبيرا من عظماء الإسلام فى العلم والأدب

٦ — كان يكتب رباعياته من حين إلى حين فى مجالس سمره وحديثه وبين خاصته، وكانت هذه الرباعيات تنتقل من يد إلى يد كباقة من الزهر تفوح بالعطر وتعبق بالشذا، فيدونها هذا وذاك من أصدقائه وتلامذته كتذكار أو كهدية نادرة من العالم الأكبر، فى حواشى كتبهم وفى بطون كراريسهم

٧ — كان وصف الخمرة والإغراق فى التغنى بمزاياها (عادة) ذلك العصر بالنسبة للأدباء الفرس كما كان التغنى بـ (ليلى) و (ديار ليلى) التقليد العصرى السائد فى العهد الأموى بالنسبة لشعراء العرب

وكفى الخيام دليلا على علو منزلته وسامى مقامه ، وجليل قدره هذه الأبيات التى وجهها إليه فى مستهل إحدى رسائله الإمام أبو النصر محمد بن عبد الرحيم النسوى قاضى الديار الفارسية آنذاك وتلميذ الشيخ الرئيس أبى على بن سيناه

قال الإمام أبو نصر :

إن كنت ترعين ياريح الصبا ذممى فاقرى السلام على العلامة الخيمى
بوسى لديه تراب الأرض خاضعة خضوع من يجتدى جدوى من الحكم
فهو الحكيم الذى تسقى سحائبه ماء الحياة رفات الأعظم الرمم

هذا هو الخيام الحقيق لا الأسطورى ، الخيام المجرد عن تزاويق الباطل وبهارجه ، العارى من ثوب البهتان وأصباغه

نماذج من شعر الخيام

ليس شعر الخيام كله مقصوراً على الرباعيات وحدها ، بل الثابت أنه كان يقرض الشعر فى اللغة العربية أيضا ، وله فى هذا المجال أبيات فريدة وصلت إلينا تدل على علو كعبه ، وسعة اطلاعه ورسوخ قدمه فى العربية وفنون بلاغتها ، حتى ليستحق أن يعد بحق قرناً لأعظم الشعراء العرب فى جميع العصور

فلنستمع إليه الآن فى هذه القطعة التى نظمها فى الفخر على طريقة أبى العلاء المعرى فى قصيدته المشهورة (ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل)

قال الخيام :

إذا قنعت نفسى بميسور بلغة يحصلها بالكد كفى وساعدى
أمنت تصاريف الحوادث كلها فكن يازمانى موعدى أو مواعدى
ولى فوق هام النيرين منازل وفوق مناط الفرقدين مصاعدى
أليس قضى الأفلاك فى دورها بأن تعيد إلى نحس جميع المساعد
متى مادنت دنياك كانت مصيبة فوا عجبا من ذا القريب المباعد
إذا كان محصول الحياة منية فسيان حالا كل ساع وقاعد

ويقول فى قطعة أخرى :

سبقت العالمين إلى المعالى بصائب فكرة وعلو همه
فلاح بحكمتى نور الهدى فى ليال فى الضلالة مدلهمه
يريد الجاحدون ليطفئوها ويأبى الله إلا أن يتمه

نكتفى بهذا القدر الآن من شعره العربى وننتقل إلى رباعياته نفسها لنضع أمامك بعضاً منها تمثل الخيام أصدق تمثيل كما نعتقد فى تفكيره وآرائه، وتعبر أدق تعبير عن نظراته التى كان ينظر بها إلى الحيـــاة

فهاهو ذا الآن يتحسر على فوات الشباب وذهاب ربيع العمر فى رباعية هى الدرة اللامعة والجوهرة الثمينة فى تاج الرباعيات الخيامية :

أفسوس كه نامه : جوانى طى شد
وين تازه بهار شادمانى طى شد
آن مرغ طرب كه نام أو بود شباب
فرياد ندانم كه كى آمد كى شد

الترجمة للمازنى من الإنكليزية

طوت يد الأقدار سفر الشباب وصوحت تلك الغصون الرطاب
وقد شدا طير الصبا واختفى متى أتى ؟ يالهف ! أين غاب ؟

وهنا نراه يطالب البارى سبحانه وتعالى بحقه فى دخول الجنة:

من بنده عاصم رضاى تو كجاست   تاريك دلم نور صفاى تو كجاست

مارا توبهشت اكر بطاعت بخشى

آن بيع بود لطف عطاى تو كجاست

الترجمة للزهاوى عن الفارسية

أنا عاص فأين منك الرضاء   أنا داج فأين منك الضياء

إنما وقفك الجنان على الطاعة   بيع فأين منك العطاء

وهنا يقف حائرا مشدوها أمام لغز الحياة وأسرارها السرمدية

قومى متفكر ند در مذهب دين   جمعى متحير ند درشك يقين

ناكاه منادى درآيد زكمين   كى بيخبر مه داه نه آنت نه أين

الترجمة للزهاوى :

فئة فى اليقين والشك هاموا   وفريق بالدين راموا لواذاً

وإذا صائح يقول مشيراً   ليس ذاكم هو الطريق ولاذا

الترجمة للبستانى عن الفرنسية والإنكليزية .

وهنا تقلقه فكرة العذاب فى يوم القيامة فيقول :

حين يارب كنت تجبل طين   عالما كنت أنت علم اليقين

كل امرئ وكنه سرى الدفين

كل ما جئته فنك بحكم   منك روحى ومنك لحمى وعظمى

فلماذا يوم القيامة فى النار   أعانى الآلام والأهـوالا

وهنا تتمثل ثورته على الظلم واحتقاره المادة :

وأجبنى ووافنى لاعـــتزال   وابتعاد عن محض قيل وقال

رب قفر من المظالم خال   ليس فيه عبد ولا سلطان

هو عندى المكان نعم المكان

رب كهف تأويه نفس أبى   فاق قصراً طالت ذراه السحابا

وهنا : نحن من التراب وإلى التراب :

وثغور الأزهار ياذا الحبيب   من ثغور سناؤها محجوب

لك قلب وفى الأديم قلوب

ضجعة اللطف فوق هذا النبات   فهو نام من أكبد الناعمات

فى مهود فيها السبات عميق   لا مفيق منه بهن أهابا

وهنا يخاطب جاره الخزاف

أمس أبصرت جارنا الخزافا   يجبل الطين كيف شاء اعتسافا

ويكيل المقدار منه جزافا

وكأنى أسمعت بين يديه   صوت ذات مظلومة تشتكيه

آه رفقا فأنت طين وماء   أيها المرء لا تسمنى العذابا

وهنا يودع الحياة بقلب دام ونفس تذوب حسرات :

يا نديمى قد آن موت النديم

فاذكرنى ذكرى الصديق القديم

وابكينى بدمع بنت الكروم ...

وبكأس الرحيق قف فوق قبرى   واسكب الخمر فوق عشب وزهر

فرفاتى إذ ذاك زهر وعشب   وأنا الشئ كان كوناً وحالا

وأخيراً تراه يقنت لربه ويستغفر ويقول :

رب رحماك ما كسبت ثوابا   لا ولا كنت مستحقا عقابا

إنما قلت ما رأيت صوابا   وعزانى الجميل كان الحبابا

وكفانى التوحيد ذخراً فإنى   لم أعدد فى دينى الأربابا

السيد أحمد مصطفى الخطيب

٢ ـ الحسن البصرى

رئيس المدرسة الفلسفية الاولى فى الاسلام

للأستاذ حسين على الداقوقى

تصوفه :

عرك الحسن البصرى أزمات فكرية متعددة ، فيقول عنه الأستاذ حلمى ضياء « أنه وافق القدريين ، فغدا مثلهم قدريا ورأى حرية الإرادة والاختيار ، ثم عدل عن هؤلاء بعد نقاش وجدل طويلين ، وشرع يتبع عبد الله بن عمر ويقفو أثره ممارضاً الجبرية والقدرية معاً ، فتكونت له شخصية متميزة خاصة به فأوجد مذهباً وسطاً بين المذهبين ذلك هو مذهب الحرية الصوفية » إلا أن هذا الرأى ينبغى ألا يجرنا إلى القول بأنه لما عدل من زمرة القدريين معناه ترك مذهب الاختيار ، لأنه فى الواقع ظل ينزع إلى المذهب نفسه ويفصح عنه بمناسبات عديدة ، وذلك مما دعا المعتزلة أن يعتبروه منهم (١)

لم يبق من آثار الحسن البصرى غير نصوص متفرقة فى طيات الكتب ، ورسائل تحملها كتب الآخرين ، مع العلم أن مواعظه العامة كانت قد جمعها طلابه أيام حياته ، ونشرت بعد وفاته من قبل حميد الطويل ، وهو الأثر الذى تطرق إلى ذكره الجاحظ فى عهده . كما نشرت من آثاره تعليقاته حول القرآن ، ورتبت من قبل عمرو بن عبيد المعتزلى بشكل تفسير وأن محاضراته المتعلقة بالأسس الأخلاقية فى القرآن جمعت باسم (مسائل) جمعها صاحبه الأشعث الحرانى . أما محاضراته غير المدونة فقد رواها تلاميذه على شكل (روايات) تروى عنه

كان الحسن ورعاً تقيا يعده الصوفية من أقطابهم ويتمثلون بحكمه وجمله ، وإذا حللنا التصوف الإسلامى إلى عناصره التى تكون منها وجدنا الحسن خير مثال لعنصر الزهد والتقوى بصفتهما الإسلامية ، وكذلك إن جاز لنا أن نقول إن الصوفية الإسلامية اتخذت لها مدارس مختلفة فى البلاد الإسلامية المختلفة كالبصرة وبغداد وخراسان وتركستان ، لأصبح الحسن البصرى دعامة مدرسة البصرة وداعية الزهد والتقوى فيها

يقول ابن تيمية بصدد البحث عن نسبة الصوفية :

« وقيل وهو المعروف ، إنه نسبة إلى لبس الصوف . فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ، وعبد الواحد من أصحاب الحسن . وكان فى البصرة من المبالغة فى الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن فى سائر الأمصار ، ولهذا كان يقال فقه كوفى وعبادة بصرية » « وإذا عرف أن منشأ التصوف كان من البصرة وأنه كان فيهـا من يسلك من طريق العبادة والزهد ما له فيه اجتهاد ، كما كان فى الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد ، فهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة وهى لباس الصوف فقيل فى أحدهم صوفى ، وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به ولكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال » (٢)

والمستشرق المشهور دوزى رأى آخر حول نشأة الصوفية وعلاقة الحسن البصرى بها . فيقول « كانت فى البصرة امرأة زاهدة ورعة تقية تسمى (رابعة) ، وهى التى اعتاد حجاج العصور الوسطى زيارة قبرها الكائن على رابية تشارف القدس ، فكانت على رأى الصوفية الأوائل ، تمتريها حالات الوجد والشعور الإشراق ، وكانت أعلى مقاماً من الحسن البصرى . ولو جاز لنا الشك فى اعتبار الحسن البصرى من أهل السنة ، لا ينكر أنه كان يحوز نقطة بدء غير التى عند المتصوفة . ففى الوقت الذى يعتبر الحسن البصرى الشعور بالخوف جوهر التقوى ، يرى الصوفية عكس ذلك ، فيبدأون من نقطة المحبة ويخاصمون الذين يتخذون الخوف مستنداً لهم . وقد حدث أن سئل أحد الصوفية « من الذى يجب أن يعتبر لثيا ؟ » فأجاب « الشخص الذى يتعبد خوفاً من العقاب ورجاء الثواب » فسئل « لماذا

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة الحسن البصرى

(٢) ابن تيمية : الصوفية والفقراء ص ٣ ــ ١٧ الطبعة الثانية ١٣٤٨ مطبعة المنار

تعبد أنت ؟ » فقال « المحبة لحب » (٢)

بيد أن الظاهر — ولعله الحقيقة — يدل على أن التصوف الإسلامي أيام الحسن كان متمثلا فى الزهد والتقوى فقط ، وهما العنصران الأساسيان فى التصوف ، أو بالأحرى هما الأساس له ، إذ لم تكن العناصر الأخرى كالأفلاطونيه الحديثة وغيرها قد دخلت فيه بعد . فالتصوف فى هذا العهد كان فى بداية نشأته وأوائل تأسيسه بشكل بسيط غير مشوب بالشوائب الأخرى التى اختلطت به فيما بعد . أما فيما يتعلق برابعة العدوية فلا يزال الشك يحوم حول صحة نسبة جميع الأقوال والأبيات الشعرية المنسوبة إليها (٤) فإن هذه الأقوال بحد ذاتها من حيث مبناها ومعناها تثير ريبة كل باحث ملم بثقافة ذلك العصر .

إن هذا الرأى هو الآخر ليتضح للقارئ الكريم بكل جلاء فى استعراضنا وتحليلنا مبادئ الحسن البصرى الصوفية ، فى الفقرات التالية :

إن نقطة البداية عند الحسن فى هذا الباب هى استصغار هذه الدنيا الفانية الزائلة التى استصغرها الله ورسوله . ونجد فى رسالته التى بعثها إلى عمر بن عبدالعزيز يقول : « أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن ، وبالآخرة لم تزل (٥) » وكذلك يرى أن الله كلف المنزوين (أهل الانقطاع) أن ينتهجوا ثلاثة مسالك : الأمل ، والأجل ، والسحر . ومعنى ذلك أن يكونوا فى حالة الأمل ، وأن يدور فى خلدهم الأجل فى كل آن ، وأن يقضوا السحر أو الليل بالفكر ، تلك الخصال الحميدة التى تميزهم عن سواهم من الناس الذين يضيعون آمالهم ، ويعتقدون بالأجل عند موافاة المنية لهم ، والليالى التى يقتضى قضاؤها بالتفكير فهم يقضونها من غير تفكير . إن قاعدة الحياة عند الحسن البصرى ليست بمجرد الحيطة والتجنب ، ولا بمجرد الورع والتقوى والابتعاد عن المنكرات الحقوقية وماشاكلها ، إنما هى قبل كل شئ عبارة عن الزهد والخشوع لله ، والتفرغ التام عن كل العالم ، وعن كل ما هو فان ، وهذا معناه أن يكون الإنسان تجاه نفسه

(٣) راجع بحث نشأة التصوف والاعتزال فى كتابه من تاريخ الاسلام

(٤) نيكلسون : فى التصوف الاسلامى ص ٧٠ من الترجمة العربية

(٥) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٤ طبعة السندوبى

فى حالة حزن دائم . ويروى أنه لم يضحك أربعين سنة ، وكان فى حزنه كما قال يونس بن عبيد الله الحسن : كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه ، وإذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه . كان إذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلا له (٦)

ومن أقواله التى يستشف منها اتجاهه فى تصوفه : قال : إنكم لا تنالون ما تحبون إلا بترك ما تشتهون . ولا تدركون ما تؤملون إلا بالصبر على ما تكرهون (٧) . قال عيسى بن عمر : سمعنا الحسن يقول : اقدعوا هذه النفوس فإنها طلعة ، واعصوها فإنكم إن أطعتموها تنزع بكم إلى شر غاية ، وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور (٨)

وكان يقول : ذهبت المعارف وبقيت المناكر ومن بقى من المسلمين فهو مغموم ويقول : ما من وسواس نبذ فهو من إبليس ، وما كان فيه إلحاح فهو من النفس . فيستعان عليه بالصوم والصلاة والرياضة ، وإذا أراد الله بعبد خيرا فى الدنيا لم يشغله بعبيد ولا ولد ... ومن لبس الصوف تواضعا لله عز وجل زاده نورا فى بصره وقلبه (٩)

إن أساس الدين عند الحسن هو التقوى والحزن ، ويليهما فى ذلك الخوف . وقد لعبت فكرة الخوف دوراً هاما فى تصوف الحسن ، فهى التى تيسر الفناء إزاء المطلق ، والذوبان فيه ، ولاشئ يطهر الإيمان كما يطهره الخوف . وقد ذكر فى سياق رسالته إلى عمر بن عبد العزيز : أدمن الجوع ، وشعارى الخوف . ولباسى الصوف ، ودابتى رجلى ، وسراجى بالليل القمر ، وصلايتى فى الشتاء الشمس ، وفاكهتى وريحانى ما أنبت الأرض للسباع والأنعام (١٠)

وكان يردد ما مفهومه : إن الخوف والرجاء دعامتان يستند إليهما المؤمن على أن يكون الخوف عنده أقوى من الرجاء ، لأن

(٦) قوت القلوب ج ٤ ص ١٨٣ ، وكتاب التصوف وفريد الدين العطار لعزام ص ٢١

(٧) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٨

(٨) نفس المرجع ص ٢٤٠

(٩) الطبقات الكبرى للشعرانى ج ١ ص ٢٥ مطبعة عبد الحميد حنفى بمصر

(١٠) حلية الأولياء لأبى نعيم ج ٢ ص ١٣٧

الرجاء عنــد ما يغلب الخوف يفضى إلى إفساد القلب، وبواسـطة الخوف ذاته نستطيع أن نتبين عجز المتناهى، والفنـاء فى داخل اللامتناهى. ذلك أن الشعور بالعجز يكشف بتضاد جدلى (ديالكتيكى) عن ماهية القدرة، وبهذه الطريقة نفسها يمكن الإصغاء إلى كلام الله، وهذا هو ما يدعى بـ (الاستماع) وبعد ما يمر الإنسان بهذه الحـالات الروحية يفهم القرآن. ومن هذه الناحية يكون الحسن البصرى واضع أساس علم النفس الصوفى أى (علم القلوب). ومن ثم يدخل فى تحليل الحالات الداخلية للانسـان، وإن التعاريف التى أوردها بصدد محاسبة الطوية والضمير Examen de conscience، كأنها قد أعدت مفاهيم الحارث المحاسبى فى هذا المجال. وقد دعا الإنسان إلى أن يوجه نظراته إلى داخل نفسه، ويتأمل، لأن التأمل هو مرآة تتجلى فيها المرء ما فى الإنسان من محاسن ومساوئ، وهو يسيطر على نفسه بالتأمل، وأن سـمة روحه هى سمة تأمله — وهى عبارات يتذكرها الإنسان عند ما يلاحظ علم النفس عند Emerson

إن آثار هذه المواعظ لم تبق مقصورة على النطاق الأخلاقى والأدبى فحسب، إنمـا عملت على توسيع المفهوم الإسلامى والفلسفة فى وقت واحد. فأصبحت شخصية الإنسان لا تفهم كمجرد شئ قائم على الأعضاء والملكات الروحية فقط — أى أن شخصية الإنسان تبعا لهذا المفهوم ليست من أثر التركيب وحده، بل إنهـا تظهر قلبا كليا ناميا متطورا، وهذه هى بداية المذهب الروحى الإسلامى Spiritualism الذى توسع فيما بعد على أيدى المتصوفة الروحيين

تطرق الحسن البصرى إلى مسألة خلق الأفعال البشرية، ورأى أن الله فوض للانسان أفعاله الحرة، وهذا يعنى أن الله وهب الإنسان الفيض والاستعداد لاستطاعته القيام بهذه الأفعال، وهذا هو منشأ مذهب الاتفـاقية Occasionalisme بينما يرى المعتزلة مقـابل ذلك نظرية التولد، أى أنهم يأخذون بالنظرية القائلة: إن الله يوجد الأفعال فى الإنسان، ولـكنه يوجد كل فعـل على حده. لذلك كانت نظرية الحسن مغايرة لمفهوم الإرادة الجزئية عند المعتزلة، وهى فى الوقت نفسه مغايرة للمذهب الجبرى Fatalism عند الجبريين، فنظرية الحسن والحالة هذه تقول بالحرية على أن تكون مرتبطة بيقين إلهى

وختاما لتصوف الحسن البصرى ينبغى ألا يغرب عن البال أن أول اتصـال بين الصوفية ونظام الفتـوة تم فى دائرة الحسن البصرى، حيث كان الحسن نفسه يعرف بـ (الفتى) أحيانا وبـ (سيد الفتيان) أحيانا أخرى (١١)

ثقافته العامة ومكانته الاجتماعية

كان الحسن أستاذ أهل البصرة، وبدرهم الطالع، يقول عنه ابن سعد: كان الحسن «جامعاً عالماً عالياً رفيعاً فقيهاً ثقة مأموناً عابداً ناسكا كبير العلم، فصيحاً جميلا وسيما (١٢)» قال ثابت بن قرة الصابئ «ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس: عمر بن الخطاب فى سياسته، والحسن البصرى فى علمه وورعه، والجاحظ فى فصاحته وبيانه (١٣)» ويروى عن الربيع ابن أنس بأنه اختلف إلى الحسن عشر سنين أو ما شاء الله ما من يوم إلا يسمع منه ما لم يسمعه قبله (١٤)

لم يكن الحسن مختصا بعلم من العلوم أو بفن من الفنون؛ إنما كان متضلعا بثقافة عصره، تطرق إلى المعارف المختلفة التى آذنت بالازدهار فى محيط الإسلام. فقد وجه تعاليمه إلى عقول سامعيه لا إلى خيالهم، وبذلك أسس فى الإسلام طريقة للتفكير تتعلق مباشرة بأوليات الفلسفة (١٥) بحيث يمكننا أن نقول إن أول مدرسة فلسفية نشأت فى الإسلام كانت فى البصرة برئاسة الحسن البصرى. كذلك كانت مواعظه رائعة تعمل فى تكوين العقيدة وعلم أصول الدين واللاهوت (١٦) ويذكر له ابن النديم مصنفاً فى التفسير، وله أيضاً كتابات فى الشروح القرآنية، وقراءاته القرآنية مشهورة (١٧) وله مكانته فى تطور النحو وعلم

(١١) أبو العلا عفيفى: الملامتية والصوفية وأهل الفتوة
(١٢) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٥ طبع ليدن
(١٣) معجم الأدباء لياقوت ج ١٦ ص ٩٥ — ٩٦
(١٤) تهذيب الأسماء للنووى ج ١ ص ١٦٢ طبعة مصر
(١٥) جواشون: نفس المرجع ص ٩
(١٦) نفس المرجع ونفس الصفحة
(١٧) الانبارى: الانصاف فى مسائل الخلاف ج ١، ج ٢ أشار إليها عدة مرات، اطلب الفهرست

الـكلام وخاصة فى الفقه . فقد دعا إلى التفقه بالدين (١٨) ، وفى له مصنف ، لعـله كان فى الفقه باسم (الإخلاص) ورد ذكره فى أخبار الحلاج المفكر الصوفى المشهور (١٩) ولا نكون مغالين إذا قلنا إن له فضلا عظيما فى تقدم الفقه الإسلامى وتوسيع نطاقه ، فقد سـئل أنس بن مالك عن مسـألة فقال : سـلوا مولانا الحسن (٢٠) وذكر عنه قتادة وقال : ما جالست فقيها إلا رأيت فضـل الحسن عليه ، وقال أيضـا : ما رأت عينـاى أفقه من الحسن (٢١) وقال بكر بن عبد الله : الحسن أفقه من رأينا ومناقبه كثيرة مشهورة (٢٢) ودرج أبو إسحق الشيرازى فى طبقات الفقهاء عددا يسيرا من تراجم أصحـاب الحسن وطلابه الفقهاء . فلا عجب والحـالة هذه إذا ما وصفه المستشرق المعروف براون فى بحثه عن نشأة الاعتزال بالفقيه المشـهور . أما فى مجال البيان فكان يشبه برؤبة بن العجاج (٢٣) فقد كان الحسن حقا أحد فضلاء الإسلام وبلغائه ، وكان طلقا لبقا ، يحذق الحديث وفن الخطاب ، حسن البديهة والارتجـال . وقيل للحجـاج من أخطب الناس قال: صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة يعنى الحسن (٢٤) وقال الغزالى : كان الحسن البصرى أشبه النـاس كلاما بكلام الأنبياء وأقربهم هديا من الصحابة (٢٥) وكان قصاصا يعد من أفاضـل القصاص وأصدقهم ، يستخرج العظة مما يقع حوله من حوادث (٢٦) يجلس فى آخر المسجد وحوله حلقته ، حيث كان نظام التدريس العالى آنذاك يجرى على شكل حلقات المحاضرة والمناظرة

لم يسـلم الحسن البصرى — كما مر بنا — من انتقـادات وجهت إليه فى أيام حياته ، فقد تهجم عليه الشيعة الإماميون والخوارج لأنه وقف على الحياد من موقعة صفين ، إلا أنه مع ذلك ظل يعتبر بين الناس رئيس الصوفية الكلاسيكية ، ومربيا لعدد من المنزلة الميالين إلى التصوف ، كما تبعه بعض المحدثين من أهل السنة ، وانتهت كل الحملات عليه بموته ، وأثنى عليه الشيعة فى بعض الأحيان وذكروا مآثره (٢٧) ومن ثم لا نستغرب من رواية ابن خلكان بأن أهل البصرة كلهم تبعوا جنازته بحيث لم يبق فى المسجد من يصلى صلاة العصر . وكانت وفاته ١١٠ هـ (٢٨) ودفن فى البصرة القديمة ، وقبره الآن بجانب قبر ابن سيرين مزار لمختلف الفرق الإسلامية

حسين على الداقوقى

(١٨) الطوسى : كتاب اللمع فى التصوف ص ١٤٢ فى سلسلة ليدن ١٩١٤

(١٩) راجع:

(١) الخوانسارى : روضات الجنات ص ٣٠٩ طبعة إيران فى مادة الحسن البصرى . وحسين الحلاج

(ب) أحمد بن الخياط الموصلى : ترجمة الأولياء فى الموصل الحدباء . مخطوط فى مكتبة مديرية الآثار القديمة العراقية . وترجم فيه أوليـاء الموصل وأهداه إلى الوزير نجيب باشا

(٢٠) الشيرازى : طبقات الفقهاء ص ٦٨ طبعة بغداد سنة ١٣٥٦ هـ

(٢١) ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ مطبعة السعادة

(٢٢) الشيرازى : نفس الصفحة من نفس المرجع

(٢٣) المعارف لابن قتيبة ص ١٩٤

(٢٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٢٦

(٢٥) الأعلام للزركلى مادة الحسن

(٢٦) فجر الاسلام لأحمد أمين ص ١٩٨

(٢٧) أمالى الشريف المرتضى جـ ١ ص ١٠٦ — ١١٢

(٢٨) ابن خلكان جـ ١ ص ١٢٩ المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠ هـ

بعد عشرين قرناً

حضارة عربية
تنكشف عنها الرمال

للأستاذ وندل فيلبس
رئيس البعثة الأثرية الأمريكية

كان الأمر على جانب من الخطورة ، فالعربي في جنوب الجزيرة لا يتردد عن قتل من يسوق سيارة من سيارات النقل ، إذا تصور أن تلك السيارة ستنتزع منه ومن بعيره رزقهما من نقل البضائع . لقد حذرونا قبل السفر بأن نكون يقظين لأولئك الذين قد يتربصون لنا خلف الصخور

إن اكتشاف الزيت في شمال الجزيرة العربية قد أزاح الإبل عن العمل في نقل البضائع إزاحة تامة . وهي بالنسبة لأصحاب الإبل نكبة اقتصادية فادحة . فليس في وسع القسم الأكبر من عرب جنوب الجزيرة شراء سيارات لنقل البضائع نظراً لفداحة أثمانها ، دع عنك تكاليف صيانتها وحفظها ، فالسيارات لا تستطيع العيش كما تعيش الإبل على الكلإ والأشواك ، والسير يوماً بعد يوم من غير ماء . ولا أن تغدو طعاماً ووبراً للحياكة عندما ينتهي أمرها كحيوانات للنقل . ولذلك فإن النظام الجديد في عدن لا يستفيد منه سوى المقتدرين . أما أصحاب الإبل الذين لم يتأثروا بعد تأثراً يذكر بمزاحمة السيارات لهم فما زالوا مستعدين للكفاح في سبيل البقاء

ولكن الخطر الأكبر في طريقنا كامن في الخلاف بين اليمن والإنجليز على الحدود ، فقد جاءني كتاب من المصادر اليمنية الرسمية قبل حين جاء فيه :

« يجب الالتفات إلى أن حوادث « العنف » التي تقع في المناطق الجنوبية من اليمن ، قد أثارت الأهالي في تلك الناحية . بحيث قد يصبح السفر خطراً في بعض الأجزاء النائية منها »

وسرنا من عدن التي جئنها من لندن طائراً خلف سفينتنا ، نغذ السير بمحاذاة ساحل حضرموت البنى . وحضرموت ميناء بحرى يمني في القدم تبدو — كشأن الفجريات — جميلة على البعد . أما وقد اقتربنا منها ، فإن الأبنية التي كانت تشرق في أشعة الشمس على حافة البحر الأزرق من بعيد ، أخذت تبدو لنا الآن قائمة على القرب ، والأبخرة العفنة المتصاعدة من أرجاء المدينة تزحم هواء البحر النقي بروائحها الكريهة

وانسابت نحونا ، في كسل ، بعض السفن العربية الهبيطة تدفعها مجاديف نوتيها من العرب . فابتدأت من تلك الساعة مهمتنا الشاقة في الاحتفاظ بسياراتنا على ظهرها حتى نصل بها إلى الساحل . إن ثبات هذه السفن الشراعية على وجه الماء كثبات الزوارق المصنوعة من لحاء الشجر ، حتى لقد كدنا نفقد إحدى سياراتنا ، فقد اندفعت على حين غرة من جانب من السفينة إلى الجانب الآخر فقطعت الأمراس التي كانت تشدها ، وبدأت تميل بالسفينة لو لم يتداركها أحدهم بحبل ثم رفعناها بالآلة الرافعة

وكانت الحواجز التي تحتم على ذلك النهار إزالتها من الطريق في الجمرك أبلغ خطراً . فقد كانت السلطات المدنية تدرس مشروعاً لشق الطرق في البلاد ، فطلبوا منا المساهمة في تمويل المشروع لقاء السماح لنا بالدخول

قلت موجهاً حديثي لجيهان خان الهندي ، سكرتير المالية لحكومة المكلا : « لا بأس ! فكم تريدون ؟ »

فأجاب بلغة إنجليزية فصيحة : « أعتقد أن ١٦،٢٠٠ جنيهاً إنجليزية كافية »

فنظرت إلى رفيقي شارلس انجي وقلت : « معنى ذلك ٥٠،٠٠٠ دولار أمريكي إننا لا نملك هذا المبلغ ، فما يريد أن يفعل به ؟ أيريد أن يوفد بعثة أخرى من قبله بذلك المبلغ كله ؟ »

فضحك انجي ، وتوصلنا بعد تسويات إلى حل مرضٍ ، فإن حكومة المكلا يرضيها أن نقدم لها دراسة بحارية أو ممهدة للطرق . ومع ذلك فلم يكن لدى أي واحد منها في ذلك الحين . فقنع جيهان خان بتعهد كتابي مني . ويسعدني القول أنني استطعت تحقيق ما جاء في هذا الفصل بفضل هذا التعهد . ثم تشرفنا بعد

الظهر من ذلك اليوم ، وكان يوم الأحد ، بزيارة صاحب السمو السر صالح صالح بن غالب القعيطي . سلطان الشحر والمكلا ، وأكبر زعماء الجانب الشرقي من المحمية ، فدعانا للعشاء على مائدته تلك الليلة . ولن أنسى ما حييت ، وقوفي إلى جانب سموه أقدم له أفراد البعثة . إن السلطان شديد الاهتمام بالشؤون العالمية ، وهو يتكلم الانجليزية ويؤلف في الفلسفة ، والعلم ، والدين ، ويحب الأدوات الحديثة ، وقد جهز قصره بالنور الفلوريسيني ، وبمسجل للأصوات . ولما كنت جالساً بجانب سموه على مائدة الطعام ، كان سؤاله الأول موجهاً إلي ، وقد نزل على رأسي ، فقد أراد أن يعرف ، من بين الأشياء جميعها ، الثقل النوعي لأحدث معدن تصنع منه الطائرات النفاثة . فهتفت : « بترى » محيلا عليه السؤال ، فهو وحده من بيننا على علم بمثل هذه الأمور

وابتدأنا بالسفر غداة يوم الإثنين ٢٠ فبراير مبكرين ، وعند الظهر اندفعت قافلتنا من بوابة المدينة وبدأت تتسلق المرتفعات متغلغلة في داخل البلاد

كان طريقنا يتجه نحو الشمال إلى وادي حضرموت فوق سلسلة من النجود العالية تسمى « الجول » ومن هناك نسير محاذين لطرف الصحراء الجنوبي حتى رملة الصباطين ثم نتجه غرباً حتى نصل إلى الطرف الجنوبي من وادي بيحان

مدن تحت رمال الصحراء

إن رملة الصباطين بحر مثلث مترامي الأطراف من الرمال الصريحة ، ترعرعت على سواحله الصخرية يوماً ما ، ثلاث من ممالك جنوب الجزيرة العربية الأربع — معين في الشمال ، وحضرموت في الشرق ، وسبأ وقتبان في الجنوب . وقد قامت مدينة مأرب عاصمة سبأ في الزاوية الشمالية الغربية من هذه الأرض التي ليس لأحد سلطان عليها ، كما قامت « تمنــا » في الزاوية الجنوبية الغربية منها . وكلتا المدينتين الآن تحت الرمال التي تذروها الرياح في كل ناحية وصوب في الجزيرة العربية المعاصرة القليلة المياه

منذ نهاية العصور الرومانية حوالي عام ٥٠٠ قبل الميلاد عندما جاء الأحباش المسيحيون إلى حضر موت ، ثم تلاهم المسلمون المتحمسون للقضاء على الوثنية ، حتى عام ١٩٢٠ ، لم يتعد عدد من زار حضر موت من الأوربيين ستة أشخاص ، ولم يقدر لبعثة أمريكية منظمة قبلنا أن ترى حضر موت أو وادي بيحان النائي

تبلغ مساحة حضرموت حوالي ٤٠٠ ميل طولا ، ويحدها عدد من النجود المكونة من الحجارة الكلسية التي تعلو في السماء البيضاء الصافية آلافاً من الأقدام . إن حضر موت شحيحة الأمطار ، وعندما تمطر السماء فيها ، فإنها تفرغ نعمها فوق الجبال ، فتتجمع المياه هناك أولا على هيئة غدران لجداول ثم تصبح في النهاية سيولا جارفة ، تتدفق من أعلى الهضاب مدوية في الوديان ، كاسحة أمامها ما يقع في طريقها

وكنا خلال اجتيازنا الجول المرتفع القارس في منتهى الحذر خوفاً من أولئك العرب الذين يكرهون سيارات النقل أشد الكره . . فكان مبارك عبد الله ضابط حرس القافلة . . يرتب سياراتنا كل ليلة على هيئة مربع مجوف كما تفعل طلائع الجيوش بسياراتها ومدافعها الرشاشة المتحركة

لقد حسبنا في اليوم الثالث أننا مشرفون على الوقوع في المشاكل ، فطريق السيارات في الجول لا يتسع لأكثر من سيارة واحدة ، وكان جانبا الطريق مليئين بالصخور الصلدة العظيمة . كنت أسوق سيارة القيادة ، وهي من نوع السيارات التي تستعمل في الاستكشافات الحربية ، فشاهدت أمامي سحابة من الغبار ثم انجلت بعد حين عن سيارتين من سيارات مكافحة الجراد الذي يكثر في الجزيرة العربية . إنه يتدلى من الشجيرات كالعناقيد فيلتقطه العرب منها كالتوت ، ويدسونه في أفواههم وهو لا يزال حيا يرفس برجله

ووقفت السيارتان أمامي ، وقفز منهما أربعة من العرب يتنكبون بنادقهم . كان الأستاذ (أولبرايت) معي فأمرونا بواسطته أن نخلي الطريق لهم من سياراتنا . فقلت لهم إني لا أرى ما يبرر إخراج ١٦ سيارة من الطريق من أجل سيارتين . فرفع أحدهم بندقيته ، ومرت لحظة من الزمن كنت أسائل نفسي فيها : « أهذه هي النهاية ؟ » ثم سمعت مبارك عبد الله يقول

بصوت مرتفع ، وهو يقفز من سيارته وكانت قد توقفت فى تلك اللحظة خلف سيارتنا .

« نح تلك البندقية جانبا » فأنزل الرجل بندقيته ، وقال : « من أنتم ؟ »

فأجابه مبارك : « أنا الضابط مبارك عبد الله . وإذا لم تتنحوا عن الطريق ألهبت رؤوسكم بالرصاص » . فأطاع الرجال وتنحوا لنا عن الطريق بخفة

عندما قتل ضيف

إن لمبارك شهرة واسعة فى حضر موت . فقد أرسل ذات مرة ضيفا إلى إحدى حفلات الزواج فى حى عمه ، فقتل الضيف . فلما بلغ النبأ مباركا ، اشترى بندقية جديدة ، ومقدارا من الرصاص ، وتوجه ليثأر لشرفه طبقا لما تخوله التقاليد القبلية من الحقوق . وبعد سنة كاملة استطاع أن يريح ضميره مرة أخرى بعد أن قتل ثلاثة من أفراد عائلته كانوا مسئولين عن إراقة دم ضيفه

كان مبارك يركب دائما بجانب « جلادس » ، ومع أنها كانت رائدتنا فطالما توارت عن أنظارنا عند منعطفات الطرق أو فوق التلاع . ولكنى ما كنت أقلق عليها لوثوق من سلامتها ما دام مبارك بجانبها على قيد الحياة . فقد كان شديد الإعجاب بقيادتها للسيارة . فالعربى ينظر لمن يسوق سيارة أو يطير طيارة بالإعجاب والإكبار . و« جلادس » كانت هائلة سواء أمام عجلة السيارة أو قيادة الطائرة

فى غضون الرحلة التى قمت بها قبل سنتين منتدبا من جامعة كاليفورنيا كانت جلادس تقود سيارة من سيارات الحمل من القاهرة إلى مدينة الكاب وهى مسافة تقرب من ٥٠٠٠ ميل . وفى العام المنصرم سجلت رقما قياسيا فى الشرق الأوسط بقيامها بست رحلات فى غضون ١٠ أيام من القاهرة إلى جبل سينا . وقد رافقها « جيفرس كافرى » السفير الأميركى فى القاهرة فى إحدى تلك الرحلات، فلم يستطع احتمالها ، فإنها لتمرسها بالأسفار فى الصحراء كانت تتغلب على ما يعترض سبيلها من العقبات ، ومع ذلك فقد كانت عنايتها عظيمة بحيث لم ينفجر ولا إطار واحد من أطر السيارات أو ينكسر محور واحد فى الطريق الصخرية إلى بيحان . وهى مهارة لم أكن أتوقعها

كانت سيارتها تتقدم القافلة دائما ، بينما كنت أتنقل فى سيارة من سيارات الاستكشاف بين أضلاع الوديان ومتون الصخور ، فقد كان تخصصى العلمى الأول هو الإحاثة فكانت تستهوينى التشكيلات الجيولوجية الظاهرة العجيبة ، وبعضها يعود إلى الزمن الذى لم تكن فيه الأرض سوى كرة صخرية جرداء تلفحها الرياح

كنت فى المقدمة عندما تراءت لنا « شيبام » مدينة الأبنية العالية والخصومات . فحينما بلغت بسيارتى قمة إحدى الهضاب ، وبدا منظر المدينة منبسطا أمامى على حين غرة ، كان الوقت ظهرا والحرارة محرقة ، حتى أن الإعياء كان قد أخذ مأخذه من حراسنا غلاظ الأجسام . كانت الصحراء ترقص أمام أنظارنا فى بهر الشمس ، وأبراج المدينة تبدو كأنها معلقة فى الهواء العائم أشدها خيوط من الفضة فوق الرمال

أسمى شيبام شيكاغو حضر موت ، لا لسبب سوى أن أبنيتها أعلى باقى البلاد . فبعضها يعلو الأسوار التى تحيط بالمدينة وتحميها من هجمات قبائل الصحراء بـ ٩ أو ١٠ طبقات . والبلد قسمان : سكان المدن المستقرون ، وسكان الصحراء المتنقلون

وليس ما يمنع تلك الأبنية من المضى فى الارتفاع سوى عدم سلامة الطين الذى يخلط بالقش « التبن » وبعر الإبل ، ويسلح بدعائم من الخشب . فإن العلو زيادة فى الاحتراس وليس من الضرورى لرخص مواد البناء فى شيبام . فكلما عشت مرتفعا بالمبنى المادى ، سبقت فى رؤية اقتراب الأعداء

لقد سمعت قصصا عن شيبام وهى من أفظع ما شهدته بلاد العرب من الميادين الحربية الدامية ، فقد كانت ميدانا للكفاح من أجل السيطرة استمر قرنا كاملا بين قبيلتين عربيتين كبيرتين هما القعيطيون الذين انتصروا فى النهاية ، والكثيريون الذين فقدوا السلطة هناك . وهذا طرف من تلك القصص :

لسبب لا نعرفه الآن أجاز السلطان منصور حاكم شيبام الكثيرى سنة ١٨٣٠ للقعيطيين شراء قسم كبير من أملاك

المدينة، فلما استقر بهم المقام ساءت نية منصور وأخذ ينظر إلى الطارئين الجدد كمعتدين ، وبدأ يعمل فيهم السيف . هذه هي البداية . ثم ارتحل قسم من الكثيريين وعادوا بجيش اضطر معه منصور في النهاية إلى تقسيم شيبام بينه وبين الكثيريين

واستمر الهدوء حيناً من الزمان حتى بدأ منصور ، الحول القلب الذي لا يستقر على حال يتطلع للقتال ، فسولت له نفسه أن يمكر بالقعيطيين فيدعو ثلاثمائة من كبارهم إلى العشاء . وكان البارود من ضمن الطعام . ولكن الخدعة لم تنطل على أحد . فإن الثلاثمائة قعيطي الذين كان يرمي إلى استئصالهم ، جاءوا مع عدد كبير من الأتباع أكبر مما كان يقدر . فعاد الكفاح سيرته الأولى من جديد . ودارت الدائرة في النهاية عليه ، فشق حلقه من الأذن إلى الأذن ، وابتدأ من ذلك الحين استئصال ما بقي من الكثيريين في القاطعة في تصميم وروية ، من غير رحمة أو شفقة ، حتى كادوا يفنون على بكرة أبيهم ، إلى أن جاء ما يسمى بصلح إنغرام قبل بضع سنين فوضع الإنجليز به حداً للقتل المنظم . لم يكن المرء ليأمن على نفسه بأن يمشي أو يركب منفرداً في شيبام نهاراً . وكان يبيت كل إنسان حصنه . وإذا كنت فقيراً فإنك تقتل أعداءك بنفسك . أما إذا كنت غنيا فإنك تستأجر من يتولى قتلهم عنك . وكان القتلة دائماً ينالون جزاءهم إما مالا أو قتلا ، وأحياناً مالا وقتلا . وعند ما يصل إفناء عائلة من العائلات حداً بعيداً ، فإن المغلوبين يحاولون عادة حسم الأمور بينهم وبين المنتصرين ، فيهيئون وليمة كبيرة ، وكجزء من الوليمة يحاولون الاتفاق على تأدية ديات القتلى ، وبذلك تذوب في بعض الأحيان ثروات بعض العائلات قبل أن يتم تسديد الديات

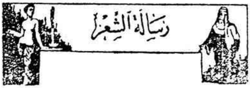
وبالرغم من وجود مبارك الذي يتولى حمايتنا أثناء رحلتنا إلى بيحان، فقد انتابني فزع شديد ذات يوم مرتين. الأولى بسبب جلادس، وبعد ذلك مباشرة بسبب البعثة كلها . كنا قد تجاوزنا شيبام ، ووصلنا إلى قلعة منفردة في بئر عسكر . وكان علينا أن نقضي الليل هناك

وبينما كنا نغادر سيارتنا ، التف حول جلادس ما يقارب عشرين امرأة كن قد جئن بإبل القبيلة إلى بئر عسكر . فأخذن في شد مئزر فلادس الغريب الهيئة الأبيض الفضفاض ، وهن يتدافعن للاقتراب منها . فأفزعني تدافعهن ، ولكني عندما هرعت نحوها ارتحت لما لاحظت أنهن كن لطيفات ، وأن فضولهن كان وديا بالرغم من خشونته . وكانت فلادس تبدو في أول الأمر مندهشة ، ولكنها أخذت تضحك بعد ذلك ، فأخذن في الابتعاد عنها نوعاً ما ، وهن يؤلفن حلقة متراصة حولها ، وتنكز إحداهن الأخرى ويتطلعن إليها ويتهاتفن على ذات الشعر الذهبي

ثم ارتفع على حين غرة صوت إطلاق الرصاص ناحية وادي حضرموت الرملي . إنه العلامة المتوقعة للخطر الذي كنا في انتظاره منذ أن غادرنا المكلا ، فتطلعت عجلا نحو مصدر الصوت ثم أسرعت إلى بندقيتي لأني استطعت أن أشاهد على البعد سحابة من الغبار وفي وسطها دون شك بعض الرجال الأشداء على ظهور إبلهم

ع . ت

(الرسالة) نقلت شركات البرق أن الأستاذ وندل فيلبس كاتب هذا المقال قد فر هو وبعثته من اليمن إلى عدن . وظل فرار هذه البعثة حديث الناس في كل مكان، يظنون فيه الظنون، ويتلمسون له الأسباب. وقد قال مكاتب (المصري) في عدن من رسالة بعث بها إلى جريدته في الخامس عشر من هذا الشهر: «قمت بتحري الأسباب التي حملت حكومة جلالة ملك اليمن على إبعاد هذه البعثة فعلمت أن ذلك يرجع إلى أن الحكومة اليمنية كانت قد سمحت لهذه البعثة الأمريكية بالتنقيب عن الآثار في منطقة مأرب وغيرها من البلاد اليمنية بموجب اتفاقية عقدت بين الطرفين أهم بنودها أن تكون جميع الآثار التي تعثر عليها البعثة ملكا لحكومة اليمن التي ساهمت بمبالغ كبيرة في هذا المشروع العلمي الجليل . وقد بدأت البعثة عملها بعد أن وقعت على الاتفاقية بتاريخ ١٦ أبريل سنة ١٩٥١ ونجحت في العثور على آثار عظيمة . ولما أوشكت مدة الاتفاقية أن تنتهي طلب رئيس البعثة من الحكومة اليمنية أن يستمر في العمل واعدا بتلافي الأخطاء التي ارتكبها أعضاء



خطوط

للشاعر الشاب محمد مفتاح الفيتورى

فقير، أجـــل .. ودميم دميم بلون الشتاء .. بلون الغيوم
يسير فتسخر منه الوجوه وتسخر حتى وجوه الهموم
فيحمل آلامه فى جمود ويشرب أحزانه فى وجـوم
وكم تبعته أكف الصغار قاذفة بالحصى والرجـوم
ولـــكنه أبدا حالم وفى قلبه يقظات النجوم

• • •

فقـــير .. وسادته ثوبه إذا ما غفا .. والفراش الحصير

بعثته لجهلهم بتقاليد أهل البلاد وعاداتهـم . وفى الوقت الذى كان يفاوض فيه الحكومة اليمنية اعتقل البوليس اليمنى عددا من أفراد البعثة بعد منتصف الليل وهم يهمون بمغادرة اليمـن حاملين معهم كثيرا من التحف الأثرية والتماثيل ، فقررت حكومة الإمام على أثر ذلك عدم تجديد الاتفاقية وابعدت البعثة عن اليمن

وقد اكتشف أخيرا أن بعض أفراد البعثة قد نجحوا فى سرقة تمثال بلقيس ملكة سبأ وهو يعتبر من التحف الأثرية النادرة

وقد علمت أن الدوائر الرسمية فى اليمن تعد تقريرا شاملا لترفعه إلى حكومة الولايات المتحدة لإعادة هـذا الأثر العظيم إلى موطنه الأصلى »

حصير تقادم حتى يكاد يخضر .. يرجع عشبا نضير
وغرفته حفرة تتعالى بجدران قبر .. وباب قصير
ومائدة وقفت كالعجوز سيقانها خالدات الصرير
ومصباحه ميت .. ميت كقلب الغنى .. ووجه الفقير

• • •

دميم .. فوجه كأنى به دخان تكثف ثم التحم
وعينان فيه كأرجوحتين مثقلتين بريح الألم ..
وأنف تحـــدر ثم ارتمى فبان كقنبرة لم تتم ..
ومن تحتها شفة ضخمة بدائية .. قلمـــا تبتسم
وقامته لصقت بالتراب وإن هزئت روحه بالقمم

• • •

وقالوا: أحب .. ورددت الألسن الساخرات .. أحب أحب !
وما ذكروا أنه مثلهم له بين جنبيه قلب يحب
وهل عرفوا الحب ؟ هل عرفوه سوى أنه جسد يضطرب
وفاكهة تشتهيها العيون وكف تجوع .. وكف تهب
ولو سألوا قبحه .. لأجابت كآبة عينيه إن لم يجب !

• • •

أحب التى شربت كأسه وأبصر فى نفسها نفسه
وكم ظل يسأل عنها الوجوه ويطرق محتضنا يأســـه
ويهرق معوله فى تراب لياليه .. محتفراً رمسه
إلى أن رآها .. رآها فغنى لحاضره .. وبكى أمسه
وعانق فى مقلتيها أساه وقدس فى طهرها رجسه

• • •

وكان يخاف لقاء المنيـة قبل لقائهما .. قبلهـا
فأمسى يود خلود الحياة لتحيا له .. وليحيا لهـا
وما شهد الفجر أحلام عينيه إلا مصليـة حولهـا
وما سمع الليل أشواق جنبيه إلا منـــورة ظلها
فلا تحسبوه يغنى لـكم ولـــكنه يتغنى لهـا

محمد مفتاح الفيتورى

العودة...

للأستاذ أحمد أحمد العجمي

عدت للحب والطلى والأغانى والليالى والفاتنات الحسان
عدت كالطير للرياض وكالأ سام للدوح فى الربيع الحانى
عدت للحب والجمال المفدى ناعماً بالخلود فى الحانى
عجباً للزمان يفنى وللأ كـ وان تفنى والحب ليس بفانى !
كيف يفنى حبى وتخمد أشوا قى وأنت الحياة ملء كيانى ؟!

• • •

زعموا أننى سلوت هواك ونسيت العهود بعد نواك
لا وعينيك والورود النضيرا ت على وجنتيك لا أنساك
إن يكن صمتى الطويل شجاك فبروحى أعيش فى نجواك
أين صوت اللسان من شغف القلـ ـب وصمت النسيان من ذكراك
يا فتاة الأحلام عودى فإنى كنت فى الصمت ناطقاً بهواك

• • •

عودة عودة إلى القبلات والعناق الشهى والصبوات
واللقاء النشوان بالصفو والبهـ ـجة والأغنيات والأمنيات
كلما أشرقت نجوم الدياجى طالعتنا بأوجه اللذات !
ومتى صفقت كؤوس الحيا رفعتنا الأحلام فوق الحياة !
مضت المعجزات إلا محيا ك فما زال أخلد المعجزات !!

• • •

أى سر يلوح فى مقلتيك ؟ أى سحر ينساب فى عطفيك ؟
أى بشر وروعة وجمال للنهى والقلوب فى وجنتيك
زعمونى سلوت عينيك أوهمـ ـت بنبع ألذ من شفتيك
فسلى مقلتى من سهر الليـ ـل وعن لهفة الحنين إليك !
واسمعى أدمعى وبث أنينى ونجوم الدجى شهوداً لديك !

• • •

أنت يادرة الجمال الفريد أنت ياواحة الشريد الطريد
يا ابتسام الحياة يافرحة المحـ ـزون يا طلعة المنى والسعود
يا ملاكاً تنقل الحسن فيه هاتفاً : ها هنا يطيب خلودى
استقر الجمال فيك إلى أن فضحته النهود بعد الخدود !
فاكتسى حسنك الأنيق حياء وتهادى فى غصنك الأملود !!

• • •

أين منك الرياض والأنداء ؟ أين منك الأضواء والأفياء ؟
أين منك الشموس والأنجم الزهـ ـر جميعاً وأين منك السماء ؟
بت أحصى محاسن الكون طرا فإذا أنت وحدك الحسناء !!
فيك حرية الجمال وفى قلـ ـبى قيود الهوى فنحن سواء !
لم الهجر والنوى وجزاء الـ ـحب ذاك الجمال والإغراء ؟!

• • •

آه لو تعلمين هول شحوبى وعذابى ولوعتى ونحيبى
وحنينى إليك فى النأى كالأم إلى طفلها الوحيد الغريب
وحنوى عليك كالديمة الوطـ ـفاء تحبو الربى بأوفى نصيب
وأغانى فيك كالجدول الرقـ ـراق يجرى مضمخاً بالطيوب
ياحبيبى متى تعود الليالى مثلما عدت للهوى ياحبيبى !

• • •

سمع الطير غنوتى وهيامى فتغنى بصبوتى وغرامى
ورأى الشاعرون حبى فأغرا هم بشعرى فرددوا أنغامى
يالصوص القريض عدت فعودوا لانتهابى وشمروا لاغتنامى !
يا شداة الألحان ها كم أناشـ ـيدى فغنوا بها وديسوا حطامى
هل على الجديين ينتجعون الـ ـخصب لوم ؟ سعياً على الأقدام

• • •

إننى أملك الكنوز جميعا فى فؤادى صبابة وولوعا
وهياما بالحسن فى كل وجه وانطلاقاً مع الأمانى سريعا
وطموحاً وثورة وإباء وحياء وحيرة ودموعا
أنت رقرقتها ينابيع فى قلـ ـبى وأطلقتها خيالا رفيعا
أنت مادمت أنت ملء فؤادى فمن العجز أن أخر صريعا !!

• • •

حسدونى على أمانى فيك هل رأوا فتنة ابتسامة فيك ؟!
ظلمونى وأمعنوا فى عذابى أنا راض بالظلم لو يرضيك ؟
حبسونى فى ظلمة الريف وحدى لينالوا المنى بغير شريك !
تشرق الشمس وحدها والمصابيـ ـح دياجير فى النهار الضحوك
فقد النصر للملاحف والشا ءِ خلف القطيع كالصعلوك !

أحمد أحمد العجمى

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

الاحتفال بالذكرى الألفية لابن سينا



صورة متخيلة لابن سينا وضع تصميمها الأستاذ أكرم شكري بالعراق وأقرتها لجنة ابن سينا

كان مقرراً أن يقام هذا الاحتفال في أكتوبر سنة ١٩٥١ ، في بغداد أولا ، ثم في طهران ، ولكن الحكومة الإيرانية طلبت أن يؤجل ريثما يتم بناء ضريح تقيمه لصاحب الذكرى في مدينة «همدان» ، فقررت اللجنة المؤلفة في الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية للاحتفال بهذه الذكرى — بالاتفاق مع ممثل إيران — أن يقام الاحتفال ببغداد في النصف الثاني من شهر مارس سنة ١٩٥٢ ، وبطهران في النصف الأول من أبريل

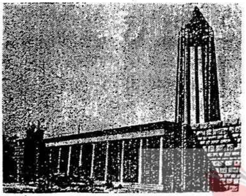
وجاء شهر مارس «الحالي» فأنبأت الحكومة الإيرانية أن الضريح لم يتم بناؤه حتى الآن ، وأنها قررت تأجيل احتفالها إلى موعد قريب سيعلن عنه وسيدعى إليه وفود من الدول العربية وعلماء ومستشرقون من مختلف أنحاء العالم

ومضت العراق في إعداد العدة لاحتفالها في الموعد المقرر ، وقد عين يوم ٢٠ مارس الحالي لبدئه ، ويستمر حتى اليوم الثامن والعشرين منه

الوفود المصرية :

وعينت الدول العربية وفودها إلى الاحتفال ، ونذكر فيما يلي الوفود التي تقرر إيفادها من مصر :

يمثل جامعة الدول العربية في الاحتفال بهذه الذكرى ، الأستاذ سعيد فهيم وكيل الإدارة الثقافية والدكتور أحمد فؤاد الأهواني والأب قنواتي والدكتور مختار الوكيل ، وقد اعتذر الدكتور أحمد أمين بك وأعد كلمة في هذه المناسبة يلقيها الدكتور مختار الوكيل في حفل الافتتاح



صورة لضريح ابن سينا في همدان

ويمثل مجمع فؤاد الأول للغة العربية الدكتور إبراهيم بيومي مدكور «وهو رئيس وفد مصر» ، ويمثل وزارة المعارف المصرية الأستاذ محمود الخضيري ، ويمثل جامعة فؤاد الأول الدكتور مصطفى عمر بك الأستاذ بكلية الطب ، ويمثل جامعة إبراهيم الدكتور عبد الرحمن بدوي الأستاذ بكلية الآداب ، ويمثل جامعة فاروق الأول الدكتور محمد ثابت الفندي ، ويمثل الأزهر الدكتور محمد البهي

ويمثل المعهد الفرنسي بالقاهرة البروفسير شاول كوينز ويحضر الاحتفال الأستاذ عادل الغضبان مندوبا من مجلة «الكتاب» ، ويحضره أيضا من رجال الآثار المصريين الأستاذان عباس بدر وحسن عبد الوهاب والدكتور محمد مصطفى

المدعوون الشخصيون

وقد وجهت الحكومة العراقية دعوات خاصة إلى طائفة من العلماء في مختلف البلاد الشرقية والغربية ليشاركوا في الاحتفال وينزلوا في ضيافتها ، وهم — بطبيعة الحال — غير المندوبين الرسميين ، وإنما دعوا بصفاتهم الشخصية

قدمت أربعة من إنجلترا ، وأربعة من أمريكا ، واثنين من فرنسا ، وواحدا من كل من كندا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا والسويد والدانمرك وهولندا وكوبنهاجن والهند والباكستان وإيران وأندونسيا وتونس والجزائر ومراكش . وقد عرفت أسماء المدعوين الإنجليز والفرنسيين ، فالإنجليز هم الأستاذة جيب ومينورسكى وآربرى وسيدنى سميث ، والفرنسيون هم الأستاذان ماسينيون وبلاشير

ودعى مصرى واحد واعتذر :

ودعت من المصريين واحدا هو معالى الأستاذ أحمد لطفى السيد باشا وقد اعتذر . كما دعت ثلاثة يقيمون بمصر أحدهم إنجليزى وهو المستر كريزول أستاذ الآثار الإسلامية بمعهد الآثار بجامعة فؤاد الأول، والآخران هما الأستاذ العلامة ساطع الحصرى بك والبروفيسير شارل كوينز مدير المعهد الفرنسي بالقاهرة وهو عضو فى لجنة الاحتفال بالإدارة الثقافية ، ومما يذكر أن الأستاذ كوينز بذل جهودا قيمة فى معاونة اللجنة ، وقد نشر المعهد الفرنسى بعض الأبحاث التى كتبها بعض أعضاء اللجنة فى ذكرى ابن سينا

بلاد « الدمنيون » فى الاحتفال :

ويلاحظ أن الدعوات الشخصية وجه أكثرها إلى إنجلترا وأمريكا وبلاد « الدمنيون » ، فقد ظفر « الإنجلو أمريكان » وحدهم بثمانى دعوات ، وثمة بلاد حافلة بكبار المستشرقين كألمانيا وهولندا ولم يدع إلا واحد من كل منها . .

وإذا كان لنا أن نغضى عن مصر ومن فيها من الأعلام وأساتذة الأدب والفكر ، وأن ندع الحديث فى إهمال دعواتهم لأننا مصريون ، فلا أظن أنه يحسن السكوت من عدم توجيه مثل تلك الدعوات إلى أحد من سائر البلاد العربية ؟ أفلم تجد الحكومة العراقية فى سوريا أو لبنان مثلا من هو أهل لكرمها الذى كان « حاتميا » فى الغرب و « مادريا » فى الشرق .. إن صح أن ينسب الكرم إلى « مادر » .. ! ؟

لجنة الاحتفال وأعمالها :

وتتكون لجنة الاحتفال المؤلفة بالإدارة الثقافية ، من الدكتور أحمد أمين بك « رئيسا » والدكاترة والأساتذة إبراهيم بيومى مدكور ومحمد الهبى ومحمد يوسف موسى وأحمد فؤاد الأهوانى ومحمود الخضيرى والسيد محمد تقى القمى وشارل كونز مدير المعهد الفرنسى بالقاهرة والمستشرق ماسينيون عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

كشكول الأسبوع

◻ فرغت لجنة الأدب بمجمع فؤاد الأول للغة العربية من فحص ما تقدم به الأدباء من إنتاج فى الشعر والقصة والبحث لمسابقة تشجيع الإنتاج الأدبى ، وقد استقر رأيها على الفائزين فى هذه المسابقة ووافق مجلس المجمع فى جلسته الأخيرة على النتيجة التى قررتها ، وعلى أن يقام حفل علنى لإعلان هذه النتيجة وتقديم الفائزين يوم ٣٠ مارس الحالى بدار المجمع . وقد فاز أربعة، واحد فى القصة وواحد فى البحث واثنان فى الشعر منح أحدهما الجائزة الأولى وهو من شعراء (الرسالة) ومنح الآخر الجائزة الثانية

◻ تلقى الدكتور طه حسين باشا من المجمع الملكى الإيطالى أنه اختير عضوا به . ومما يذكر بهذه المناسبة أن سعادته عضو منذ سنين بالمجمع الملكى الفرنسى والمجمع الملكى الاسبانى

◻ من « الصور الكاريكاتيرية » فى الأدب العربى التى تحدث عنها الأستاذ كامل كيلانى فى ندوة بالاتحاد الثقافى المصرى ، ما صور به ابن الرومى أنف كنيزة المغنية فى البيت الآتى :

عوضت من ذوائب وقرون
حل أنف فيه افرخين عش

◻ قرأت فى العدد الأسبق من (الرسالة) قصيدة « من وحى الكاس » للأستاذ محمود غنيم ، التى جمعت بين الدعابة المستملحة والالتفاتات الجميلة والموسيقية العذبة وقد استرعى انتباهى قوله فيها :

قد يغفر الله للسكير من كرم
ويخلد الراهب الذكير فى النار

وذلك لتوارد خاطره مع المعرى فى قوله:

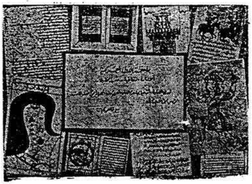
ولم آمن على الفقهاء حبسا
إذا ما قيل للأمناء جوزوا

◻ من أنباء عدن أن الهيئات والجمعيات والصحافة هناك ، طالبت باتخاذ العربية لغة رسمية مع اللغة الانجليزية فى عدن وفى جنوب الجزيرة العربية المحتلة بالقوات الانجليزية . والغريب فى هذا النبأ أنه يطلعنا على واقع يدعو إلى الدهشة والأسف وهو أن جزءا من « الجزيرة العربية » لا تستعمل فيه العربية لغة رسمية ! وما أشد تواضع المطالبين .. إذ يطلبون فقط مشاركتها اللغة الانجليزية

والأب جورج شحاتة قنواتى

وقد عملت هذه اللجنة فى الإعداد للاحتفال بذكرى ابن سينا منذ سنتين ونصف سنة، عقدت فى خلالها اثنتين وعشرين جلسة. وأهم ما أنجزته فى هذا السبيل تحقيق جزء المنطق من كتاب « الشفاء » للرئيس ابن سينا ، قامت به لجنة فرعية برياسة الدكتور إبراهيم بيومى مدكور ، وطبعت الكتاب وزارة المعارف المصرية ؛ وكلفت اللجنة الأب قنواتى بالكتابة عن مؤلفات الشيخ الرئيس ، فقام بذلك فى مؤلف صدر فى العام الماضى عنوانه « مؤلفات ابن سينا » . وقام أعضاء اللجنة ، كل منهم فى مجال اختصاصه ، بعمل بحث سياقى فى الاحتفال . وقد نشر المعهد الفرنسى عدة أبحاث فى ذكرى ابن سينا لبعض أعضاء اللجنة، منها بحث للدكتور محمد يوسف موسى فى الناحية الاجتماعية والسياسية من فلسفة ابن سينا ، وبحث للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى فى الناحية النفسية من هذه الفلسفة، كما قام المعهد بنشر بحث آخر للأستاذ لوى جارديه المستشرق الفرنسى فى المقدمات الفلسفية للتصوف السينوى

واستكتبت اللجنة بعض العلماء والكتاب والمستشرقين مقالات وأبحاثا تتناول مختلف الموضوعات التى كانت ميادين لإنتاج ابن سينا . وقد وصلها طائفة من الموضوعات أعدها بعض المستشرقين ستلقى فى الاحتفال



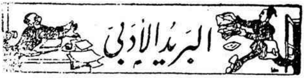
صورة غلاف مجموعة من مخطوطات ابن سينا النادرة مهداة من الادارة الثقافية إلى الدول العربية

معرض المخطوطات والصور

وسيقام فى أثناء الاحتفالات معرض تعرض فيه المخطوطات النادرة لابن سينا ، وقد قام بتصويرها قسم التصوير بمعهد المخطوطات فى الإدارة الثقافية ، كما يعرض فيه معظم الكتب المطبوعة من مؤلفات الشيخ الرئيس والكتب المؤلفة فيه ، قديما وحديثا ، باللغة العربية وبغيرها من اللغات الحية

وتعرض فى هذا المعرض أيضا صور متخيلة لابن سينا صورت فى العراق وفى إيران أو جلبت من دور الكتب العامة والخاصة فى استنبول وفى أوربا ، وصور لتوقيعه وبعض خطه ، وطوابع بريد تذكارية وضعت فى إيران ، ومجموعة من مخطوطات ابن سينا النادرة ستهديها الإدارة الثقافية إلى الدول العربية

عباس خضر



إلى أخي الأستاذ رجب البيومي

السلام عليكم ورحمة الله وبعد ، فإنني لم أرد أن أدخل بينك وبين الأستاذ شاكر فيما شجر بينكما من خلاف ، حتى ينتهى إلى غايته كما انتهى .. ذلك أنني كنت حريصاً على أن أدعك ورأيك ، وألا أبدأ تعارفي بك في زحمة الجدل . وإن ظن أخونا شاكر أن بيننا صحبة وثيقة هي التي تدفعك إلى رد تهجمه أو تقحمه ، حتى لقد أنذرنا مما عداوة يوم القيامة : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو » ، لأن مألوف الناس قد جرى في هذا الزمن الصغير ، على أن الحق وحده ، أو الرأي وحده ، لا يكفي لأن يدفع كاتباً فيكتب ، دون هوى من صداقة أو علاقة !

ولو كانت بيننا معرفة سابقة ، ولو استشرتني قبل أن تدخل مع صاحبنا في جدل ، حول ما أثاره من صخب ، وما نفضه من غبار ، لأشرت عليك ألا تدخل ، ولآثرت لك ما آثرته لنفسي من إغضاء وإغفال .. ذلك أنني لم أستشعر في هذا الصخب الصاخب أثراً من صفاء نية ولا رغبة في تجلية حقيقة . ولو استشعرت شيئاً من هذا ما تركت صاحبي دون أن أجيبه — على الأقل من باب الأدب واللياقة — ولكنني اطلعت على أشياء ، ما كان يسرني والله أن أطلع عليها في نفس رجل ربطتني به مودة أصفيتها له في نفسي ، بعد ما كان بيننا من جدل قديم يعرفه قراء الرسالة عام ١٩٣٨ ، وما أزال أرجو أن أكون مخطئاً فيما أحسست به ، وأن تبقى لي عقيدتي في ضمائر الناس، وفي الخير الذي تحتويه فطرتهم

ولو كانت الحقائق هي المقصودة ، لما احتاج الكاتب الفاضل إلى اصطناع مثل هذا الأسلوب الصاخب المفرقع ؛ ولما لجأ منذ مقاله الأول في « المسلمون » إلى الشتم والسب والاتهام بسوء النية وسوء الخلق والنفاق والافتراء والسفاهة والرعونة .. إلى آخر ما خاضه — ويغفر الله له فيه — فدون هذا وتعالج أمور النقد العلمي ، وبغير هذا الأسلوب يمكن تمحيص الحقائق

إنه لا معاوية ، ولا يزيد ، ولا أحد من ملوك بني أمية قد اغتصب مال أبي أو جدي ، أو قدم إلى شخصي مساءة ولا إلى أحد من عشيرتي الأقربين أو الأبعدين .. فإذا أنا سلكت في بيان خطة معاوية في سياسة الحكم وسياسة المال ، وخطة الملوك من بعده (فيما عدا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه) مسلكا غير الذي سلكته في بيان خطة أبي بكر وعمر وعلي رضوان الله عليهم جميعا — فليس أول ما يتبادر إلى الذهن المستقيم ، والنية السليمة ، أن ما بي هو سب صحابة الرسول — صلى الله عليه وسلم — لا عن خطأ ولكن عن رغبة قاصدة في إفساد الإسلام ، وسوء نية في تدنيس المسلمين !!!

وكتاب العدالة الاجتماعية مطبوع متداول منذ أربع سنوات ، وطبعته الثالثة في المطبعة ، والصخب حوله الآن فقط ، قد يشي بشيء لا أرضاه للصديق . وقد قرأه الناس في أنحاء العالم الإسلامي ، فلم يستشعر أحد من موضوعه ولا من سياقه ، أن النية السيئة المبيتة لهذا الإسلام وأهله هي التي تمر سطوره !

إنما أحس الألوف الذين قرأوه — أو على الأقل المئات الذين أبدوا رأيهم فيه — أن كل ما كان يعنيني هو أن أبرئ الإسلام من تهمة يلصقها به أعداؤه ، وشبهة تحيك في نفوس أصدقائه . إذ يحسبون أن سياسة بني أمية في الحكم وسياستهم في المال، تحسب على الإسلام . والإسلام بريء من هذا الاتهام

روى سعيد بن جهمان عن سفينة — مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ، ثم ملك بعد ذلك . ثم قال سفينة : أمسك خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي .. فوجدناها ثلاثين سنة .. قال سعيد : قلت له : إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم . قال : كذبوا بنو الزرقاء ! بل هم ملوك من شر الملوك — رواه أصحاب السنن بسند حسن

وأحسب لقد كان بنفسي — وأنا أعرض النظام الاجتماعي في الإسلام — أن أقول شيئاً كالذي قاله مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم — لا عداء شخصيا لبني أمية ، ولكن تبرئة للاسلام

من أن تحسب عليه سياسة لا يعرفها ، لا في الحكم ولا في المال . والإسلام منها بريء ، فيجب أن يعرف الناس براءته ، وأن يعرض عليهم في صورته التي عرفتها الخلافة السمحة ، وأن ينفى عنه ما لحقه في عهود الظلام والاستبداد

وما كان لي بعد هذا ، وأنا مالك زمام أعصابي ، مطمئن إلى الحق الذي أحاوله ، أن ألقى بالا إلى صخب مفتعل ، وتشنج مصطنع .. وما كان لي إلا أن أدعو الله لصديقنا شاكر بالشفاء والعافية ، والراحة مما يعاني ، والله لطيف بعباده الأشقياء

أما أنا فما أحب أن يكون لي مع قوم خرجوا على خليفة رسول الله ، وقتلوا ابن بنت رسول الله ، ورموا وحرقوا بيت الله ، وساءوا في سياسة الحكم وفي سياسة المال على غير هدى الله .. أدب أرفع من أدب مولى رسول الله ، الذي أدبه ربه !!!

سيد قطب

كمال الدين جودت

نعت الصحف منذ أيام المغفور له الأستاذ كمال الدين جودت المهندس ، والد صديقنا الأستاذ الشاعر صالح جودت ، وشقيق الأستاذ القانوني صالح جودت بك المحامي ، والذي يعني « الرسالة » الكشف عنه ناحية أدبية في حياة الفقيد لا نحسب أن أحداً يقف عليها أو يذكرها اليوم

فقد كان المرحوم كمال الدين جودت مهندساً بحكم تعليمه وثقافته ، ولكنه كان إلى جانب هذا أديباً فناناً بدافع طبيعته ومواهبه ، فقد عني في مطلع حياته بالكتابة على أسلوب المقامات ، ثم انصرف عن ذلك إلى الزجل أو الشعر المصري كما كان يسميه ، وكانت له في هذا السبيل محاولة طيبة ، إذ أراد أن يستخدم الزجل في تقريب العلم وتحبيبه إلى النفوس بين الناشئين والعامة ، فمن ذلك أنه نظم جغرافية القطر المصري بالزجل في كتاب سماه « قلائد الدر في جغرافية مصر » طبعه عام ١٩٠٣ م

وهو بهذا الصنيع يقابل صنيع العلماء في نظم العلوم شعراً كما صنعوا في النحو والقراءات والفقه والمنطق والحساب وتقويم البلدان ، ولا شك أن أسلوب الزجل في هذا يكون أقرب وأحب إلى نفوس الناشئة والعامة لقرب مأخذه وقلة المئاة في فهمه

وأسلوب المرحوم كمال جودت في الزجل لطيف خفيف ، فهو يفتتح كتابه في جغرافية مصر قائلا :

باسم الكريم أفتتح زجلي ... في علم تقويم البلدان
إياك على الله ابلغ أملي ... وانفع به أبناء الأوطان
العلم ده اسمه جغرافيه ... كمان وتقويم البلدان
كله فوائد عال كافيه ... طبعاً لتثقيف الأذهان

وهو بهذا الأسلوب يأخذ في الحديث عن هذا العلم وتقسيماته ووصف هيئة الأرض وأقسامها ، ثم يأخذ في وصف القطر المصري ومدنه وأقاليمه ، فنجده يتحدث مثلا عن مديرية الشرقية وتقسيمها الإداري فيقول :

عندي مديريه سنيه ... بحثت عنها بالتدقيق
حلوه تسمى الشرقيه ... خص به وبندرها الزقازيق
عدد مراكز الشرقيه ... ستة بدت بالبنجبات
فاقوس وبلبيس مع ههيا ... وكفر صقر مع القنيات
وكمان مركز منيا القمح ... مركز لطيف خالص وجميل
وفي وصفهم يحتاجوا شرح ... وقصدنا عدم التطويل

أما وقد وصف — رضوان الله عليه — بلدتي منيا القمح بأنها « مركز لطيف خالص وجميل » فإن الوفاء ليقتضيني وقد انتقل إلى جوار ربه أن أرد له هذا الجميل

محمد فهمي عبد اللطيف

تحقيق لغوي

يذهب بعض الباحثين إلى وجوب تجريد الفعل الماضي التالي للنفي والاستثناء من الواو ، ولست معهم فيما ذهبوا إليه ، والسماع خير شاهد ، وإليك الأدلة :

١ — قال الأصمعي : « يستحب من المهارى أن تقصر أذنابها ، وقل ما ترى مهريا إلا — ورأيت — ذنبه المسل كأنه أفعى » أوهام شعراء العرب لأحمد تيمور باشا ص ٤٣ نقلا عن التبريزي في شرح المعلقات

٢ — قال دعبل : « مضى على ستون عاما ما تصرم منها يوم إلا — وقلت فيه شعراً — » من مجلة الرسالة الغراء السنة



المارد الذي يحب نفسه

للكاتب الإنجليزي أوسكار وايلد

كان الأطفال قد اعتادوا دخول بستان المارد واللعب فيه حين يعودون من المدرسة عصر كل يوم . وكان بستاناً واسعاً ، رقيق الحواشي ، قد اكتست أرضه بالعشب الأخضر الطري ، وانتثرت في أرجائه الأزهار الجميلة كأنها النجوم . وكانت فيه اثنتا عشرة شجرة من أشجار الخوخ التي تتفتق في الربيع عن أزهار رقيقة زاهية الألوان كأنها اللآلئ ، تتحول في الصيف إلى ثمار يانعة سائغة . وكانت الأطيار فيه تعتلي غصون الشجر وتغرد في عذوبة تصرف الأطفال عن ألعابهم وتستوقفهم مأخوذين، فلا يملكون أن يعبروا عن نشوتهم بغير هذا القول:

— ألا ما أسعدنا في هذا المكان !

غير أن المارد عاد يوماً من زيارة أحد أصدقائه الغيلان، بعد أن لبث معه سبع سنين ، أنهى في خلالها كل ما أراد أن يحدثه به — فإن محادثته كانت محدودة تنتهي ولا شك — عاد المملاق إلى قصره فرأى الصغار يلعبون ويمرحون في البستان !

فصرخ فيهم بصوت خشن غليظ قائلا :

— ماذا تصنعون هنا ؟

فانطلق الأطفال من فورهم هاربين ! ثم استأنف المارد صراخه قائلا :

— إنما هذا البستان ملكي ، وذلك ما يستطيع إدراكه كل إنسان ، ولست أسمح لأحد غيري باللعب فيه أبداً :

ثم قام فصنع جداراً رفيعاً سور به بستانه ، ورفع لوحة كتب عليها هذا الإعلان :

سيجزى المخالفون شر الجزاء

فياله من مارد لا يؤثر أحداً بالحب سواه !

الخامسة ص ١٥٨٧ ، وفي الصفحة التالية من المرجع نفسه يقول لأحد أصدقائه . « ما كانت لامرىء عندي من منة إلا — وتمنيت موته — »

٣ — وقال البديع في المقامة الناجية : « وما سكنت حرب إلا — وكنت فيها سفيراً — »

٤ — ومن أبيات الشواهد :

نعم امرأ هرم لم تعر نائبة ... إلا ـ وكان ـ لمرتاع بها وزرا

٥ — وقال عنترة :

أنا الشجاع الذي ما رمت منزلة ... إلا ـ وأدركها ـ سعدي وإقبالي

٦ — وقال أبو فراس :

وما اشتورت إلا ـ وأصبح ـ شيخها
ولا احتربت إلا — وكان — فتاها

٧ — وقال المبرد يشرح بيت الفرزدق :

بأيدي رجال لم يشيموا سيوفهم
ولم تكثر القتلى بها حين سلت

وهذا البيت طريف عند أصحاب المعاني ، وتأويله لم يشيموا لم يغمدوا ولم تكثر القتلى : أي لم يغمدوا سيوفهم إلا — وقد كثرت — القتلى حين سلت . اهـ بلفظه نقلا عن تهذيب الكامل للأستاذ السباعي جـ ١ ص ٣١٢

فقد أتى مع الواو بعد ورود مثل هذا شعراً ونثراً

أقول : والذي هداني إليه البحث وتتبع الأساليب العربية ، أن تجريد الفعل من الواو في مثل هذا أكثر ، وهو مع كثرته لغة القرآن الكريم ، ودخول الواو على الفعل وحدها أو مع قد مسموع في الفصيح شعراً ونثراً ، ولسنا في حاجة إلى صرف هذه الشواهد إلى الضرورة أو الشذوذ أو لأن بعضها لا يحتج بقائله ، وليسع أدباؤنا المعاصرون الذين يشيع على ألسنتهم ، وفي كتاباتهم هذا التعبير ما وسع هؤلاء الأفاضل ، فليس من الخطأ على كل حال ، وإن كان التجرد أكثر على ما يظهر

رباحه عباسى

ولم يبق حينذاك للأطفال الصغار أماكن ملعب يرتمون فيه . لقد حاولوا أن يتخذوا لهم من الشارع ملعباً ، ولكنهم زهدوا فيه حين وجدوه مليئاً بالأتربة والأحجار ، وظلوا كذلك يحومون حول الجدر الرفيعة — حين ينتهون من دروسهم — لاهجين بجمال ذلك البستان الذى وراء تلك الأسوار ، و بأيام سعادتهم التى انتهت ، يقولون :

— ألا ما كان أسعدنا هناك !

ثم قدم الربيع وانتشرت بمقدمه الأزهار والأطيار فى كل ناحية على الأرض غير بستان هـذا المارد اللئيم الذى لم يبرحه الشتاء . إن الأطيار لم يهمها أن تغرد فيه حين غاب عنه الأطفال؛ وإن الأشجار قد نسيت أن تورق أو تزهر ... ولقد أخرجت إحدى الأزهار الجميلة مرة رأسها من بين الأعشاب فهالها وأحزنها أن ترى لوحة الإعلان تمنع الصغار من غشيان البستان ، وانسلت هاربة لتستأنف نومها العميق الذى كانت مستغرقة فيه . ولم يكن فى العالم أحد قد استولى السرور عليه غير « الثلج » و « الجليد » اللذين قالا فى نفسيهما :

— إن الربيع قد نسى هذا البستان ، ولذلك فإننا سنحيا هنا طوال العام !

وكذلك طغى « الثلج » على الأعشاب وأسبل عليها طرف ردائه السابغ ، وانتشر « الجليد » على الأشجار فكساها حلة من الفضة ازدانت بها ، ثم إنهما أمرا ريح الشمال أن تبق معهما فلبت أمرها ، وجاءت ملتفة بالفراء تصفر طوال النهار خلال البستان والداخن ، فرحة بهذا المكان البهيج

ثم إنهم قرروا دعوة « البرد » فنزل وأنشأ يتحدر كل يوم ثلاث ساعات بشدة حتى يكسر بلاط القصر ، فإذا تم منه هذا أمعن هرباً حول البستان يطوف بأقصى ما أوتيه من سرعة ! لقد كان برداً عجيباً أغبر ، وكانت أنفاسه بيضاء كالثلج !

وقد جلس المارد اللئيم ذات يوم فى الشباك المطل على البستان الأجرد الشاتى ، وقال يحاور نفسه .

— ما أقدر أن أفهم سبب تأخر الشتاء حتى الآن ! وما أظن إلا أن تغيراً قد طرأ على الجو .

ولكن الشتاء لم يأت ، ولا جاء بعده صيف ولا خريف ... بل إن الخريف نفسه جاء وأنضج الثمار فى كل بستان إلا فى بستان هـذا المارد الذى كان يعرفه الخريف لئيما لا يحب أحداً غير نفسه !

وإن المارد لمضطجع ذات صباح فى فراشه فسمع أنغاماً شجية تطرق أذنيه خيل إليه لعذوبتها أنها من فرقة موسيقى الملك حين كانت تجتاز الطريق ، ولم تكن تلك الأنغام الشجية غير صدح طائر صغير كان يشدو على بعد من نافذته . لأنه ما سمع من أمد بعيد شدو طائر ، فظن أن ما طرق أذنيه أعذب ما فى العالم من ضروب الألحان !

ثم إن البرد وقف تهتانه من حوله ؛ وريح الشمال قطعت صفيرها ، وهبت على المارد من النافذة نفحة من أريج عبق جميل . فقال المارد فى نفسه :

— ما أحسب إلا أن الربيع قد جاء أخيراً . وقفز من فراشه ، فماذا أرى !

إنه لمنظر جد جميل !

أولئك هم الأطفال الصغار ، قد دخلوا البستان من خلال نقب صغير وجدوه فى أحد الجدر واعتلوا الأغصان وبقوا هنالك جالسين . وقد ابتهج الشجر بمقدمهم فأورق ، وماس على رؤوسهم فى حب وحنان ، وكانت الطير تشدو حيناً وتطير حيناً فى جذل وابتهاج ، والزهر يرنو إلى ذلك بسام الثغور من بين الأعشاب

— إنه حقا لمنظر بهيج !

ولكن الشتاء لما يبرح تلك الزاوية القصية التى وقف فيها أصغر الأطفال يحول طوراً ، ويطوف بما حوله طوراً آخر ، والشجرة المسكينة التى بقربه ما تزال شاتية . . إن ذلك الطفل لم يتمكن من الوصول إلى الغصن لصغره ؛ وكانت الريح الشمالية تعصف حوله ، والشجرة تنحنى له ما استطاعت وتدعوه قائلة :

— تسلق أيها الطفل الصغير ... ولكنه لن يقدر على شىء من هذا !!

... وأدركت المارد عليه الشفقة حين رآه فقال :

— ألا ما كان أشد إيثارى لنفسى ! لقد عرفت الآن سبب انقطاع الربيع من المجىء إلى هنا ... سأذهب إلى ذلك الطفل

فأضمه على الشجرة ، ثم أنقى على الجدار فأهدمه وأجعل من بستاني هذا ملعباً وقفاً على الأطفال حتى الأبد ... واشتد أسفه على ما كان بدر منه

ثم إن المارد نزل وفتح بابه في هدوء وسار في بستانه ؛ ولكن ما إن رآه الأطفال حتى هربوا ، وعاد الشتاء إلى البستان من جديد ! ولكن صبيا واحداً منهم لم يهرب ، ذلك هو الصغير الذي ملأت عينيه الدموع لما رأى المارد قادماً إليه

وتسلل المارد إلى الطفل ورفعه بلطف فأجلسه على الشجرة فما كان أسرعها حين أورقت وازدهرت ، وما كان أسرع الأطيار حين تساقطت عليها مغردة حائمة حول الصبي الصغير الذي كان يحولها عنه إلى عنق المارد مسروراً ، ثم انحنى الطفل على المارد فقبله ، فلما رأى أصحابه ذلك أمنوا المارد وعادوا وعاد معهم الربيع ، فقال المارد يخاطبهم :

— إنه بستانكم أيها الصغار الآن . ثم تناول معولا كبيراً فهدم به الجدر القائمة حول البستان . فكان الناس إذا مروا به في طريقهم إلى السوق في منتصف النهار رأوا المارد يلاعب الأطفال في أجمل بستان تقع العين عليه !

وظل دأب الأطفال كذلك ، يلعبون طوال النهار ، حتى إذا أمسى المساء وخيم الليل ، جاءوا إلى المارد فحيوه وانصرفوا

وقد سألهم المارد مرة عن صديقهم الصغير الذي كان قد رفعه على الشجرة ، فأجابوه بأنهم لا يدرون من أمره شيئاً ، فإنه ذهب ولم يعد ... إنهم لم يروه من قبل ، ولا رأوه من بعد ، ولا يعرفون أين يسكن . لشد ما حزن المارد على ذلك الطفل الصغير الذي قبله !

* * *

بقي الأطفال على هذا : يختلفون إلى البستان عصر كل يوم بعد انتهاء دروسهم ، فيلعبون مع صديقهم المارد ... غير أن الطفل الصغير وحده كان المتخلف من بينهم أبداً . ولكم كان المارد يشتاقه ويحبه ، ويتحدث عنه ويتمنى أن لو رآه .

ومضت على ذلك السنون تتبعها السنون ، فشاخ المارد وعجز عن مشاركة صغاره اللعب ، فكان يجلس على مقعد وثير ليتفرج عليهم هانئاً مغتبطاً . وكان يقول في نفسه :

— إن في هذا البستان لكثيراً من الأزهار الجميلة . ولكن أجمل منها في نظري هؤلاء الصغار

وفي صباح يوم شات — وقد أصبح الشتاء الآن لا يفزع المارد ، وإنما هو إغفاءة قصيرة لا يلبث الربيع بعدها أن ينهض بأزهاره وتهاويله — في صباح ذلك اليوم ، بينا كان المارد يرتدي ثيابه إذ بصر بشيء هاله . فكذب نظره وكذب نفسه ... إنه منظر مدهش عجيب ! أفي الإمكان هذا ؟ شجرة حالية بالنوار الجميل في تلك الزاوية القصية وتحتها طفله الصغير الذي أحبه واقفاً !

هرول المارد نازلا يستخفه الفرح ، وجاز أرجاء الحديقة مسرعاً حتى جاء إلى الطفل ، وما كاد يقترب منه ويراه حتى طار غضبه واربد وجهه ، وسأله قائلا حين بصر بآثار مسامير على يديه ومثلهما على رجليه :

— من ذا الذي تجرأ فجرحك ؟ قل من ذا الذي تجرأ عليك ففعل ؟

فأجابه الطفل الصغير :

— كلا ... ما هذه جروح حقيقية ، إنها جروح الحب !

وهنا استولت على قلب المارد الرهبة والخشوع فخر ساجداً أمام قدمي طفله وسأله قائلا :

— من أنت إذاً ؟

فأجابه الطفل باسماً : أنا الصبي الذي سمحت لي مرة باللعب في بستانك هذا ، جئت لآخذك معي إلى بستاني الذي هو الفردوس

* * *

وحينما جاء الأطفال عصر ذلك اليوم كعادتهم ، وجدوا المارد ميتاً في مكانه تحت تلك الشجرة ، وقد نثرت على جثمانه الأزهار والنور الأبيض الجميل

ف . س

مطبعة الرسالة